٧٤ - سورة المدثر


وزارة المعارف العمومية

تفسير جزء تبارك

وهو الجزء التاسع و العشرين من الكتاب الكريم

تأليف العالم الجليل

الشيخ عبد القادر المغربي

نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة

قام بتصحيحه و علق عليه بتكليف من وزارة المعارف المصرية

على محمد حسب الله

استاذ العلوم الشرعية المساعد بكلية دار العلوم (جامعة فؤاد الأول بالقاهرة)

المطبعة الاميرية بالقاهرة

١٣٦٦هـ - ١٩٤٧ م

سورة المدّثر مكية

وهى ست وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾

كلمة [المدّثر] فى أحوالها الصرفية كالمزمل ، وقد تقدّم بيان ذلك ، و[المدّثر] مشتق من الدثار ، وهو اسم الثوب الذى يلبس فوق الشعار ، والشعار الثوب الذى يلى شعر الجسد ، ومعنى [المدّثر] المتلفف فى دثاره ، ويقال فى سبب خطاب الملك له صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب ماقيل فى سبب خطابه له بـ (يأيها المزمل)، ومن ثَمّ قال بعضهم إن أوائل هذه السورة أول ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم، وبيان ذلك أن جبريل بعد أن لقنه سورة "اقرأ باسم ربك" و (يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا) إلى آخر الآيات ، وحصل له صلى الله عليه وسلم من التأثر ما حصل — تخلف عنه الملك زمنا طويلا كى يهدأ روعه ، ويستجم نشاطه ، وليعود صلى الله عليه وسلم إلى ذكرى الوحى ، ويتطلب تلك المناجاة السماوية برغبة وشوق وحنين ، ثم عاد الملك فتجلى له ثانية مخاطبا مشجعا ، فعراه صلى الله عليه وسلم أيضا شىء مما كان عراه فى المرة الأولى، فجاء بيته وقال لأهله : " دثرونى دثرونى " وبينا هو متدثر جاءه الملك فخاطبه قائلا : ﴿ يأيها المدّثر ﴾ الذى اشتمل بدثاره داخلا فيه كمن لايهمه أمر ولا يعنيه شأن ﴿ قم ﴾ وانشط من مضجعك هذا ، واربأ بنفسك أن تنزلها هذه المنزلة من الوحشة والعزلة ؛ فإن العناية الإلهية قد رشحتك لمقام سام ، ونشر دين عام ، ﴿ فأنذر ﴾ الناس بذلك الدين ، وخوّفهم العاقبة إن هم أعرضوا عنه ، وكذبوا به .

وفعل (أنذر) يتعدّى إلى مفعولين ، يقال : "أنذر قومه عذابا شديدا" مثلا ، لكن لما كان الوحى الإلهى إنما يريد منه صلى الله عليه وسلم فى أول الأمر أن يقوى على الإنذار ويتصدى له بهمة ونشاط حذف مفعولى أنذر لعدم تعلق الغرض بهما ، وتعلقه بأصل الإنذار إذ كان هو أهم شىء بالنسبة

إليه صلى الله عليه وسلم ما دام لا يعلم بعد من هذا الذى يخاطبه ؟ وما ذا يريد من غشيانه له المرة بعد المرة ؟ وقول القائل إن أوائل هذه السورة أول ما أنزل على النبى صلى الله عليه وسلم يراد به أنه أوّل ما أنزل عليه بعد سنتين أو أكثر من انقطاع الوحى عنه . وقال بعضهم : لم يكن السبب فى تدثره صلى الله عليه وسلم ما لحقه من خطاب الملك ومفاجأة الوحى ، بل كان السبب فيه سوء معاملة قومه له ، وتهكمهم به عند قيامه بالدعوة ومباشرة أمرها ؛ فكانوا كلما تصدى لهم أو عرض شيئا من الوحى عليهم أسمعوه ما يكره مما لم يعتد سماعه من أحد . وكانوا يقولون له : يا ساحر ، يا مجنون . وقد ألقوا عليه يوما سَلَى جزور ، فنجسوا ثيابه ، ولوثوه بالدم . فاغتم صلى الله عليه وسلم من ذلك ، وشق عليه ، ورجع إلى بيته مكتئبا حزينا . والمرء فى مثل هذه الحالة تطيب له العزلة والتلفف بثوب أو قطيفة ، مفكرا فى أمره ، مستطلعا طلع مصيره . وهذا ما كان منه صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه لما وصل إلى بيته تدثر وجعل يفكر فى عبء الرسالة ، وصعوبة أمر الدعوة ، ولا سيما بين قوم كقريش فى أعلى ذروة من السؤدد والمجد ونفوذ الكلمة فى العرب . وكان من أخص خلائقهم الكبر والخيلاء والجبروت والتمسك بتقاليد الآباء ، فكيف ينتظر أن يخضعوا لشاب منهم : جعلته أخلاقه الفطرية ، وفضائله النفسية — فى معزل عنهم ، ولم يضمهم به يوما مجلس قمار أو خمر أو لهو ، ولم يروه مشاركا لهم فى أعيادهم ، أو السجود لأصنامهم ، أو ممارسة عبادة من عباداتهم ، مما من شأنه أن يؤلف بين القلوب ، ويغرس الميل والثقة فى النفوس .

كان صلى الله عليه وسلم فى مثل ما ذكر من ضروب الهواجس والأفكار ، وإذا الملك يهتف به قائلا : (يأيها المدّثر) المستغرق فى هواجسه وهموم نفسه ، (قم) نشيطا ، ولا تجعل لليأس إليك سبيلا ، (فأنذر) قومك وادعهم وخوفهم مهما تجهموك وأسمعوك وآذوك ، وامض فى دعوتك قدما من دون أن تباليهم أو تخشى جانبهم ؛ فإن انسلالك من بين أيديهم ، ونومك فى بيتك منعزلا عنهم — لا يفيدك شيئا ، بل ربما أغراهم بك ، وجرأهم عليك ، وحال بينك وبين ما أنت بسبيله من نشر التوحيد والإسلام ، وإبطال عبادة الطواغيت والأصنام .

وسواء أقلنا إن تدثره عليه السلام وانزواءه عن الناس فى بيته كان تهيبا للوحى ، وتفصيا من ضغطته ، أم تجنبا لأذى قومه ، وتفكيرا فى مصيره معهم ؛ فإن الوحى السماوى لم يعذره فى أى الأمرين كان ، بل حضه على الهبوب من المضجع ، والتشمير للدعوة ، والجد فى أداء الوظيفة التى اختارته لها العناية الأزلية . وبديهى أن قيامه صلى الله عليه وسلم بدعوة جبابرة عتاة إلى خلع

وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾

دينهم ، وما ورثوه عن أجدادهم — يحتاج إلى سلاح ماض يتحصن به في أثناء المقارعة والمصاولة ؛ فما هذا السلاح ؟ وما هي تلك القلاع الشاهقة ؟ والجيوش المتلاحقة ؟ والأعتد والآلات ؟ المهلكات المبيدات التي استعان بها صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى ربه ، ومحاربة الشرك وحزبه ؟ لم يكن شيء من ذلك كله ، ولم يكن معه مساعد غير الوعد الإلهي ، وغير ما في هذه الآيات الآتية من الوصايا التي أمره ربه أن يتدرع بها ، ويروض نفسه عليها ، وهي قوله تعالى :

﴿وربك فكبر الخ﴾ ، والفاء في (فكبر) لإفادة معنى الشرط فهي فاء الجواب ، كأنه يقول : ومهما قام في وجهك من العقبات فلا تدع تكبير ربك ، وكذا يقال في فاءات الجمل الآتية ، ومعنى (كبر ربك) اختصه بالكبرياء ، وأفرده بالعظمة والمجد ، وارفعه عن أن يكون له شريك من معبودات المشركين وآلهتهم . ففي هذا تقرير لعقيدة التوحيد ، وتحرير للعقل من سلطة الأوهام وعبادة الخيال .

هذا هو السلاح الأول ، أما السلاح الثاني فهو تحرير النفس من سوء الأخلاق ، ورديء الخصال ، وهو ما أراده تعالى بقوله :

﴿وثيابك فطهر﴾ لا شيء يلازم الإنسان في مختلف حالاته ، ويصاحبه في جميع أدوار حياته ؛ منذ ولادته إلى حين مماته — مثل ثيابه التي يتحجر فيها ، فصارت كأنها جزء من أجزاء ذاته ، وأحد مقومات قرونته[١] ، وصاروا إذا وصفوها بوصف كانوا كأنهم وصفوا النفس ذاتها ؛ فيقولون : فلان طاهر الثياب أو نقي الثياب ، وطاهر الجيب والذيل والأردان ، ويريدون وصفه نفسه بالنقاء من المعايب ومدانس الأخلاق ، ويقولون في ضد ذلك : فلان دنس الثياب ، وخبيث الثياب ، وقال عنترة بني عبس :

فشككت بالرمح الأصم ثيابه   ليس الكريم على القنا بمحرم

وشك الثياب بالرمح ليس مما يتمدح به ، وإنما المقصود شك جسده ، بل قلبه أو نفسه بالرمح ، فإن هذا الشك هو الذي يرديه قتيلا ، وهو الذي يثبت بسالة عنترة وحذقه في فنون

(١) القرونة : النفس .

وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾

القتال ؛ فمعنى قوله تعالى : (وثيابك فطهر) وقلبك أو نفسك طهرها من ذميم الأخلاق ، وسيئ الملكات ؛ فلا تجعل للجزع والسآمة وقلة الصبر والخور وضعف الهمة وغير ذلك من أمراض النفس سبيلا إلى نفسك ، فالآية تحضه صلى الله عليه وسلم على تهذيب نفسه ، وتحريرها من قيود الصفات الذميمة ، وهو السلاح الثانى .

أما السلاح الثالث فتحرير الجوارح من المعاصى والذنوب ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :

﴿ والرُّجز فاهجر ﴾ الرُّجز : بكسر الراء وضمها فى أصل معناه العذاب ، ثم كثر استعماله فى كل ما أوجب العذاب وأدّى إليه من المعاصى والآثام ، فهو يقول : اترك كل ما يجر إلى العذاب من تلك المعاصى ، وحرر جوارحك من مقارفتها ؛ فلا تدع سمعك ولا بصرك ولا فمك ولا يدك ولا رجلك ولا عضوا آخر من أعضائك يلم بشىء منها . هـذا هو السلاح الثالث من الأسلحة التى يتم بها استعداده صلى الله عليه وسلم للمضى فى دعوته ، والنجح فى مهمته ، والظفر بطلبته .

وقد استوعب الوحى فى هذه الآيات الثلاث التى لا تتجاوز بضع كلمات — أمهات الفضائل الإنسانية ؛ إذ أن الإنسان ليس سوى عقل ونفس وجسد ، وكل فساد أو صلاح يطرأ عليه أو شر أو خير يصدر منه فإنما مقره هذه الأشياء الثلاثة ، التى هى مقوّمات وجوده ، وأركان كيانه . فبقدر ما يتوفر له من صلاح العقل بالعقائد الصحيحة ، وصلاح النفس بالآداب الرفيعة ، وصلاح البدن بهجر الآثام الوبيلة — تتوفر له السعادة الكاملة فى الدنيا والآخرة . وبقدر ما ينقص من ذلك يخسر من سعادته ، ويدنو من شقاوته .

وليس معنى أمر الله له صلى الله عليه وسلم بتحرير عقله ونفسه وبدنه أنه — وحاشاه — ملوث بشىء من دنس الوثنية أو العيوب أو المعاصى ؛ إذ قد ثبت بالنقل المتواتر الذى لا ريب فيه أنه صلى الله عليه وسلم كان كاملا فى عقيدته ؛ فلم يمارس عبادة جاهلية ، كاملا فى نفسه ؛ فلم يتلوث بخلق ذميم ، كاملا فى جوارحه ؛ فلم يقترف بها معصية قط . ومهما كان أعداؤه المشركون يوجهون إليه المطاعن والشتائم فلم نسمعهم مرة يقولون له : إنك كنت بالأمس شريكا لنا فى عبادة اللات والعزى أو هبل الأعلى ، أو يقولون له : غدرت بفلان ، أو أسأت إلى فلان ، أو استحمقت على فلان ، أو يقولون له : أنت الذى كنت تفعل كذا وكذا من

المعاصى والمخازى . لم يكونوا يقولون له شيئا من ذلك . ولو وقع منهم لنقل إلينا كما نقل قولهم له إنه ساحر ومجنون . وقد بسطنا ذلك بسطا شافيا فى كتابنا الذى نؤلفه فى سيرة حياته صلى الله عليه وسلم . أما قوله تعالى له فى سورة الضحى : (ووجدك ضالا فهدى) فمعناه أن ربك وجدك منذ نشأتك فى ضلال ، أى حيرة من أمر هداية قومك ، وإنقاذهم من دنس الشرك ومعرة الجاهلية ، إذ كنت واقفا من أمر هدايتهم فى مفرق طرق : لا تدرى أى طريق تسلكه إلى هدايتهم ، حتى هداك ربك بالوحى إلى دين الإسلام وتعاليم القرآن ، وأمرك أن تسير بقومك على نوره ، وأنقذك من الحيرة التى كنت فيها . هذا هو معنى الضلال فى الآية .

تقول : وإذا كان الأمر على ما ذكرت من سلامته صلى الله عليه وسلم فى عقله ونفسه وجوارحه وعدم تقصيره — فما معنى الوحى له بتمجيد الرب ، وتطهير النفس ، وترك المعاصى ؟

فأقول إن المراد من أمره بما ذكر طلب الدوام منه على ما هو عليه ، وتذكيره بأنه صلى الله عليه وسلم مزود من طهارة عقله ونفسه وجوارحه بما يساعده على أداء وظيفته والقيام بمهمته ، فلا يبتئس ، ولا يحزن ، ولا ييأس ، ولا يكثر من القلق والاهتمام ، وينبهه إلى أن من كان مثله طاهرا من الشوائب ، سليما من المعايب — لا يخسر ولا يخيب ، بل يكون له من الظهور وحسن العاقبة أوفر نصيب . وهذا كما تقول لابنك — وأنت ترشحه للضرب فى البلاد من أجل كسب مال أو معال ، وقد شعرت منه بشىء من التهيب وتوقع الخيبة : ” أقدم يا بنى ولا تخف ، وكن أديبا فطنا أمينا مطيعا لربك ، مالكا لإربك ، وفيا لصحبك ، واصبر تر ما الله فاعل بك “ تقول له هذا وأنت تعلم أن كل ما أمرته به هو من صفاته وأخلاقه ولا تريد من توجيه الخطاب إليه بذلك الأمر إلا حثه على انتظار النجاح ، وبث الطمأنينة فى نفسه للمستقبل . ومثل هذا قوله تعالى : (إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر) أى أعطيناك يا محمد الخير الكثير ، فلتكن صلاتك وما تقدمه من القرابين خالصا لله ، ولا تجعل لغيره من المعبودات فيهما نصيبا . والمعنى دم على ما أنت عليه من هذا الاخلاص ؛ فإنه قضاء للذمة ، ووفاء لحق النعمة . وإلا فإنه صلى الله عليه وسلم لم يسجد لصنم قط ، ولم يذبح لصنم قط وهذا هو معنى قوله تعالى هنا لنبيه : مجد ربك يا محمد ، وطهر نفسك ، واحم جوارحك — إن شاء الله .

وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾

ثم إنّ من الصفات النفسية صفتين هما أشدّ ما يلزم للقائم بالدعوة أية دعوة كانت : دينية أو دنيوية ، سياسية أو اجتماعية ، تانك الصفتان هما الجود والصبر ، فلا يمكن قط أن ينجح داع فى دعوته وهو ممسك شحيح ، كما لا يمكن أن ينجح فيها إذا كان ملولا جزوعا ، مسترخى العزيمة محلول عروة الصبر ، فكم دعوة حق اضمحلت وزالت بسبب شح القائم بها ، أو بسبب ملله وقلة صبره ، وكم دعوة بطل لا أساس لها تدرّع صاحبها بالجود والسماح ، واستشعر الصبر والدأب والالحاح ، فكانت عاقبته الفوز والغلبة والنجاح .

وقل من جدّ فى أمر يحاوله واستشعر الصبر إلا فاز بالظفر

اعتبر ما قلناه فى الدول التى ظهرت فى أزمنة التاريخ المختلفة ، وخاصة التى ظهرت فى صدر الاسلام ، فإنّ الدولة الأموية لم تثبت ويستتب لها سلطان إلا بالبذل والسخاء ، والصبر وانتظار الفرص ، أما الدول الأخرى التى كانت تنافسها وتجرى معها فى ميدان واحد كالدولة الزبيرية مثلا — فإنه لم يضر بها ويقطع عليها الطريق إلى غايتها إلا الشح والضنّ بالمال ، والملل وعدم انتظار الفرص .

إذا تقرر هذا فهمنا السر فى تخصيص الله هذين الخلقين بالذكر بعد أن عم فى آية (وثيابك فطهر) التى قلنا إنّ معناها عليك بكرائم الخصال ، ومحاسن الأخلاق ، ثم خصص فقال : ﴿ ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر ﴾، كأنه يقول : وأخص من بين تلك الأخلاق العطاء بلا استكثار ، والصبر على المكاره والمضار ، فقوله :(ولا تمنن تستكثر) معناه لا تعط وأنت مقدّر فى نفسك أنّ ما تعطيه كثير ، بل أعط عطاء من لا يخاف الفقر ، وقدّر أنّ ما تعطيه قليل وإن كان كثيرا فى الواقع ونفس الأمر ، يقال : "منّ الأمير على فلان" إذا أنعم عليه واصطنع عنده يدا .

وقوله(ولربك فاصبر) معناه اصبر على أذى قومك وعُرامهم ، وعدم انقيادهم لك ، لأجل ربك وتبليغ رسالاته ، وتلقين وحيه ، فإنّ فى هذا الصبر بلوغ ما تشتهى وتحب من إيمانهم ومسارعتهم إلى تصديقك ، وقد قال تعالى لنبيه فى معرض الامتنان عليه بما وهبه من حسن السجايا حتى كانت سببا فى تألف العرب ، وحبهم له ، وانقيادهم إلى دعوته — : (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) ، فلينه صلى الله عليه وسلم ورفقه ، ومكارم أخلاقه عامة ، وسخاؤه وصبره

فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾

خاصة — كل ذلك مما أدّبه ربه به فكان سببا لظهور دينه ، ونجاح دعوته ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم : "أدّبنى ربى فأحسن تأديبى" ، أما تأديبه له بالجود والسخاء فيكفى فى التمثيل له إعطاؤه يوما لبعض المؤلفة قلوبهم واديا مملوء إبلا وشاء ، وأما صبره وثبات قلبه فيكفى فى الدلالة عليه ما قاله صلى الله عليه وسلم فى جواب عمه أبى طالب مذ رغبه فى السكوت عن قومه وترك التعرض لهم فى دينهم وأنهم يمتعونه فى مقابل ذلك بما شاء من زهرة الحياة الدنيا وزينتها : " والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى ما تركت دعوتهم إلى دين الله".

قوله ﴿فإذا نقر فى الناقور﴾ الفاء للسببية كالفاء الثانية فى قوله تعالى : (فاخرج منها فإنك رجيم) ، أى لأنك رجيم ، والمعنى هنا انهض يا محمد لإنذار قومك متدرّعا بما أمرتك به ، واصبر على أذاهم ، ولا تبال بهم ؛ فإن أمامهم إن بقُوا على كفرهم يوماً شديد الهول عليهم ، و[النقر فى الناقور] هو بمعنى النفخ فى الصور ، تقول : " نقرتُ الرجل" إذا صوّتَّ له بلسانك ، والنقر بالخيل إزعاجها بالصوت حثا لها على المسير ، و[الناقور] فاعول اسم الآلة التى ينقر بها أو عليها فتصوّت ، كالهاضوم اسم للدواء الذى يؤكل فيكون به الهضم ، فالنقر كما يكون بمعنى الضرب على دف مثلا بحيث يسمع له صوت يكون بمعنى التصويت والنفخ فى الشيء فيسمع له صوت .

ويفهم من كلام بعض المفسرين أن النقر غير النفخ ؛ وهو يدل على أن النفخ فى الصور والنقر فى الناقور كليهما ليس من باب الحقيقة ، بل هو كناية عن إعلان ذلك اليوم ، والمناداة به ، وظهور أمره ، وانكشاف سره . أو هو تمثيل لبعث الخلائق وحشرهم فى صعيد واحد بحيث يحسب من رآهم أن نفخة صور أو نقرة ناقور أهابت بهم وأزعجتهم إلى حضرة ربهم . على أن الشرع إن كلفنا الاعتقاد بالصور والناقور فإنه والحمد لله لم يكلفنا معرفتهما ، ولا كيفية النفخ فى الصور ، أو النقر على الناقور — معرفة اكتناه . وذلك رحمة بنا ، وتيسيرا للأمر علينا .

وقوله ﴿ فذلك ﴾ إشارة إلى الوقت المفهوم من إذا ، أى فذلك الوقت أو اليوم الذى ينقر فيه فى الناقور . وقوله : ﴿ يوم عسير ﴾ خبر لقوله فذلك . وقوله (يومئذ) بدل من (فذلك) الذى قلنا إنه بمعنى فذلك اليوم . وفائدة هذا الإبدال زيادة التقرير والتصوير فى الأذهان . وكما أكد فى الإبدال من المبتدأ أكد بتقرير الوصف مذ قال ﴿ غير يسير ﴾ فإنه بمعنى (عسير) . وهذا كما تقول " أنا محب لك غير مبغض" فقولك "غير مبغض" يورث الكلام فضل تأكيد . بل ربما

عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾

كانت نكتة التكرير فى الآية الإشارة إلى أن عسر ذلك اليوم لا يصحبه يسر كما يصحب عسر الدنيا ؛ فهو عسر مطبق ، وهول مغلق . و ﴿على الكافرين﴾ متعلق بعسير ، أو بيسير . والعامل فى قوله (فإذا) مضمون جملة الجزاء وهى (فذلك يومئذ يوم عسير) والمعنى : يشتد الهول ويعسر الأمر وقت نقر الناقور .

معنى ﴿ذرنى ومن خلقت﴾ دعنى وإياه ، وكِلْ أمره إلىَّ ، وثق أنى قادر على كفايتك همه . وهو أسلوب بليغ فى التهديد ، مثله ما سبق فى آية (ذرنى والمكذبين أولى النعمة) وآية (فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث) .

وهذا الذى يقول الله إنه خلقه وسينزل به عقوبته هو الوليد بن المغيرة المخزومى ، أحد عظماء قريش وذوى السؤدد والجاه والسعة فيهم . وقد ذكره تعالى بأياديه عنده فى معرض تهديده وتخويفه ، ليكون ذلك أدعى إلى الكسر من نفسه ، والغض من خيلائه ؛ فيكف عن بعض شره وإيذائه للنبى صلى الله عليه وسلم . والوحى وإن نزل فى سبب خاص ، أو خوطب به واحد من الأشخاص — فإن أسلوبه يبقى عاما متناولا كل من كان كالوليد فى معاندة الحق ، والكفر بالله وترك الشكر له على نعمه وسوابغ آلائه . ويقول بعض المفسرين إن الوليد هذا هو الذى آذى رسول الله وكاد له ، واضطره أن يأوى إلى بيته ويتدثر بقطيفته مغموما حزينا ؛ فإن صناديد قريش لما برموا برسول الله ، وضاقت عليهم الحيل فى إسكاته ، وإطفاء نور دعوته — لجئوا إلى الوليد ، فأشار عليهم بأن يلقبوه صلى الله عليه وسلم بالساحر ، ويأمروا عبيدهم وصبيانهم أن ينادوا بذلك فى مكة ، فجعلوا ينادون : إن محمدا لساحر . فلما سمع رسول الله ذلك وجم واشتد عليه الأمر ، ورجع إلى بيته حزينا ، فتدثر بقطيفته ، فنزل عليه جبريل يقول : (يأيها المدثر قم فأنذر) ، وقد ذكرنا هذا آنفا مستوفى الشرح والتفسير ، إلى أن قال له ربه هنا : (ذرنى) أى دعنى يا محمد بعد أن تكون أنت على ما أحببت لك من استجماع الكمالات الإنسانية فيك (ومن خلقت) أى وعدوك الوليد الذى خلقته ﴿وحيدا﴾ أى دعنى وحدى معه ، ولا تستجش عليه الأعوان والأنصار ، فأنا كافيكه وحدى ، وفىّ الغناء عن كل عون ونصير . فيكون (وحيدا) حالا من مفعول (ذرنى) أو المعنى دعنى وهذا الذى خلقته وحدى ولم يشركنى فى خلق له شريك أو مساعد . وفى ذلك تنبيه للوليد إلى أن من العار عليه أن يقرن بمن تفرد بخلقه شريكا

وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾

فى العبادة ، أو إيقاظه إلى أن من خلقه وحده قادر على أن يهلكه وحده ولا يعارضه فى إهلاكه معارض ؛ فيكون (وحيدا) على الوجهين حالا من فاعل (خلقت) .

أو المعنى : دعنى يا محمد وهذا الذى خلقته فكوّنته فى بطن أمّه وحيدا : لا رفيق له سوى رفقى ولطفى وعنايتى ، ثم ولدته أمّه فكان وحيدا فريدا : لا مال له ولا ولد ، ولا حول ولا مدد ، حتى إذا أسبغت عليه الآلاء ، وأمددته بالأموال والأولاد والأخلاء — قام يكفر بى ، ويكذب رسولى ، ويعاند آياتى . فيكون (وحيدا) حالا من مفعول (خلقت) وهو ضمير يعود على من .

وهذا المعنى الأخير يناسب ما بعده من تعداد النعم ، وتذكير الوليد أنه أصبح بها كثيرا وافر العدد ، بعد أن كان وحيدا منقطع المدد . وبعد نزول هذه الآية صار يلقب الوليد بالوحيد تعييرا له ، وتهكما به . وقيل كانوا يلقبونه بالوحيد قبل نزول الآية تكبيرا له ، وتنويها بانفراده فى الرياسة ، فلما نزلت قلبت المدح إلى قدح ، وحوّلت التكبير إلى تعيير .

ثم أخذ الكتاب فى بيان النعم والأيادى التى كانت لخالقه عليه فقال : ﴿وجعلت له مالا ممدودا﴾ أى مبسوطا موسعا . وقريب منه قولهم " فلان صاحب سعة ، وموسع عليه فى الرزق " فهو من المدّ بمعنى بسط الشيء وتوسيعه ويحتمل أن تكون من المدد والإمداد ، يعنى أن ماله كان كالنهر : كلما نفد منه شيء مُدّ بآخر ، وكلما أنفق نعمة أخلف الله عليه غيرها . وكان للوليد هذا بستان فى الطائف لا ينقطع ثمره صيفا ولا شتاء فى نعم وأموال أخرى كانت ممتدّة بين مكة والطائف . ومن ثم قال بعضهم إن امتداد ماله المفهوم من قوله (ممدودا) هو على حقيقته . ﴿ وبنين شهودا ﴾ ، أى مقيمين معه فى بلده ، لا يبرحونها ابتغاء للكسب وطلب المعاش ؛ لوجود أعوان يكفونهم مؤونة ذلك ؛ فهم دائما شهود حضور بين يدى أبيهم ، يستأنس بهم ، ولا يتنغص عيشه لفراقهم . ويشبه هذا ما قالوه فى بيت حسان رضى الله عنه :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

وأنه أراد بقوله "حول قبر أبيهم" أنهم ملوك أعزاء مقيمون بدار مملكتهم : لا يبرحون للاكتساب ، ولا ينتجعون كالأعراب .

أو المراد بكونهم (شهودا) أنهم بلغوا من الرجولة والكمال والنجابة مبلغا يشهدون به مع أبيهم المجامع والمحافل العامة ، فيكونون زينة لأبيهم وجمالا .

وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ

وقوله ﴿ومهدت له تمهيدا﴾ من قبيل التعميم بعد التخصيص . فبعد أن ذكر من مظاهر النعم الإلهية المال والبنين ، عاد فلف النعم والخيرات الدنيوية لفا فى هذه الجملة فقال : (ومهدت الخ) أى بسطت بين يديه الدنيا بسطا ، ويسرت له تكاليف الحياة ومظاهر الجاه تيسيرا ، بحيث لا يصعب عليه تناول ما شاء منها .

و[التمهيد] فى الأصل أن تجعل الشيء أو الأرض ممهدة مبسوطة ، يقال " مهد الأمر " إذا وطأه وسهله وسوّاه وأصلحه . ثم جعلوا يتجوّزون به عن بسطة المال والجاه . ويقول الكُتّاب فى ترسلاتهم : " أدام الله تأييدك وتمهيدك " يريدون ما ذكرنا .

وبدل أن يشكر الوليد لربه هذا الإحسان ، ويقابله بالطاعة والإيمان — عكس الأمر وقابله بالجحود والكفران ، فعلّم قريشا أن يلقبوا رسوله بالساحر ، وينادوا عليه به فى كل أرجاء مكة ، وقد أشار الوحى إلى ذلك فى الآية الآتية من هذه السورة على لسان الوليد : (إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر) . وقال عنه فى سورة " ن والقلم " : (إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) . وكان الوليد يقول لأولاده ورجال عشيرته : " لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشيء أبدا " ، فكانوا بسبب ذلك يمتنعون عن الإسلام . وقد مر عن الوليد هذا خبر طويل فى سورة " ن . والقلم " وقوله تعالى فيه (ولا تطع كل حلاف مهين هماز) إلى آخر الأوصاف العشرة التى وصفه الوحى بها — ذاك هو شأن الله مع الوليد فى إسداء النعم وموالاة الإحسان ، وهذه هى شنشنة الوليد مع ربه فى الجحود والعصيان ، ومقاومة أهل الإيمان . ﴿ثم﴾ إن الوليد بعد ذلك كله لايستحى من ربه ، ولا يفطن إلى سوء أدبه ، بل هو ﴿يطمع﴾ ويحرص ﴿أن أزيد﴾ له من نعمى ، وأوالى عليه من إحسانى .

يساء إلينا ثم يرجى ودادنا لقد هان من يعطى مودته غصبا

ويروى أن الزيادة التى كان يطمع فيها الوليد لم تكن من جاه الدنيا وخيراتها ، بل من نعيم الآخرة وبحابح جناتها ، فقد كان يقول : "إن كان محمد صادقا فما خلقت الجنة إلا لى" . ﴿كلا !﴾ أى ليرتدع الوليد عن طمعه ، وليكفف من غروره ؛ فليس هو أهلا لما طمع فيه . وقد روى أن الوليد لم يزل بعد نزول هذه الآية فى نقصان وخسار حتى افتقر ومات معدما .

فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ
وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾

وقوله ﴿فقتل ... ثم قتل﴾ يعني قتله الله ! وهو كقولهم : قاتله الله ! ما أشجعه ! وأخزاه الله ! ما أشعره ! يقول العرب هـذا فى معرض التعجب والاستعظام مدحا ، وكأنّ الأصل فى هـذا الاستعمال أنّ هذا الشجاع أو الشاعر بلغ فى شجاعته وشعره حدّا يثير الحسد فى نفوس الناس ، فلا يملكون ألسنتهم من الدعاء عليه بالقتل أو الخزى شأن الحاسد مع محسوده، ثم شاع هذا الاستعمال وحرف إلى المدح والتعجب حتى صار يقوله المحب فى محبوبه ، والوالد لولده ، أما هو فى الآية فتعجب واستعظام مشوبان بالقدح، ولا مدح فيهما ، أو يقال إن المدح فيهما وارد مورد التهكم فلا تضر ملاحظته فى الآية .

و[العبوس والبسور] والكلوح — تقلص عضلات الوجه عند الألم أو الحزن ، أو همّ نفسى ينفعل له المرءُ ، وجعل بعضهم الكلوح فى الشفاه بحيث تبـدو الثنايا ، والعبوس فى تقطيب الحاجبين ، والبسور أشد من العبوس .

وقوله ﴿يؤثر﴾ معناه يروى ويتناقل خلفا عن سلف .

قلنا إنّ الوليد على عتوّه ، وشدّة عناده — كان لا يملك نفسه عن الإعجاب بالقرآن وفصاحة آياته ، حتى قال فيه قوله المأثور : "إنّ له لحلاوة ، وإنّ عليه لطلاوة الخ" وقال لقريش يوما : سأبتار لكم — أى سأجرب وأختبر — هذا الرجل الليلة — يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم — فجـاءه فوجده يصلى ويقترئ ، فرجع إليهم واجما واله النفس ، فقـالوا له : "مه" قال : "سمعت قولا حلوا أخضر مثمرا يأخذ بالقلوب" . وزار أبابكر مرة وسأله عن القرآن ، فأسمعه شيئا منه بصوته الرقيق الحزين اختلب به لبه ، فخرج إلى قريش فقـال : "يا عجبا لمـا يقول ابن أبى كبشة ! فو الله ما هو بشـعر ، ولا بسحر ولا بهـذى من الجنون ، وإنّ قوله لمن كلام الله" فكانت قريش يسمعون هـذا وأشباهه من الوليد فيخامرهم الريب فيه ، ويقولون : "والله لئن صبأ الوليد لتصبأن قريش" أى لئن خرج من دينه إلى دين محمد ليفعلُنَّ مثله . ثم راجعوا أبا جهل فى أمره ، وخوّفوه العاقبة إن هو أسـلم . فأعلن أبو جهل عظماء قريش وصنـاديدهم وجوب الاجتماع فى ناديهم المسمى "دار النـدوة" ، فشهده ملؤهم وأشرافهم. وحضر الوليد، فقال له أبو جهل : "أى عم ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا"

إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾

﴿ إنه كان لآياتنا ﴾ حججنا على خلقنا : من كتب ورسل ﴿ عنيدا ﴾ معاندا لها ، مكابرا فيها. [عَنَدَ] عن الطريق مال وعدل ، وعاند فلانا جانبه وفارقه وعارضه بالخلاف والعصيان ، وعاند الحق جحده ورده وهو يعرفه ، فهو معاند وعنيد . ومما رووه من عناد الوليد أنه مر على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ "حم السجدة" وقيل بل سمعه يقرأ آية (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) فرجع وقال لقريش : "والله لقد سمعت آنفا من محمد كلاما : ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى". لا جرم أن من عرف من كلام الله مثل ما عرف الوليد وبقى مقيما على تكذيبه له ووصفه بأنه (أساطير الأولين) ، وقوله فيه (إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر) — كان معاندا للآيات ، خليقا بأن يكابد من العذاب أشدّ الصعوبات . ومن ثم قال تعالى فيه : ﴿ سأرهقه صعودا ﴾ أى سأكلفه وأحمله عذابا شاقا صعبا عليه ، تضعف عنه قوته كما تضعف قوة من يصعد فى الجبل . و[الصعود] بضم الصاد مصدر صعد ، وبفتحها العقبة فى الجبل يصعب على المرء التصعيد فيها . وقد مر فى تفسير قوله تعالى : (عذابا صعدا) أن العرب جعلوا صعود المرتقى الصعب مثلا فى تكليف الأمر الشاق الذى لا يطاق ، فراجع ما قلناه فى سورة الجن .

ذكر فى الآيتين السابقتين أن الوليد شديد العناد لآيات الله ، وأن الله سينزل به ما لا طاقة له به من العذاب . وكأن سائلا سمع ذلك فسأل : وكيف كانت حالته فى معاندة الآيات حتى استحق العذاب ؟ ثم سأل : وما هو العذاب الذى يرهقه يوم القيامة ؟ فأجيب عن الأول بقوله تعالى : ﴿ إنه فكر وقدّر الخ ﴾ ، وأجيب عن الثانى بقوله بعد ذلك : (سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر الخ) ، فهذه الآيات والتى تليها تفصيل وشرح لما أدمجه فى آيتى (إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا) وهذا كقوله تعالى فى سورة الإخلاص (الله أحد، الله الصمد) ، ثم عاد بالبيان على (الله أحد) فقال : (لم يلد ولم يولد) ، وعلى (الله الصمد) فقال : (ولم يكن له كفوا أحد) ، وفى هذا الإسهاب بعد الإيجاز — ما فيه من البلاغة وباهر الإعجاز .

﴿ قدّر ﴾ الأمر فى نفسه هيأه ، وأجال فيه رأيه ، ليبرزه إلى الناس نافعا كاملا ، ومثله (روّزه) إذا أعمل الروية فى ترتيبه وتقديره ، و"زوّره" بتقديم الزاى إذا أداره فى نفسه وهيأه .

قال : « ولمه » قال : « يعطونك إياه ؛ فإنك تتعرض لمحمد طالبا ما قبله » يريد أبو جهل أنه يتعرض للنبي فى طلب عطية منه . وإنما أراد بهذا القول أن يُحمّى الوليد ويغضب ، فيتجنب مجالس النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة . فقال الوليد : قد علمت قريش أنى أكثرها مالا . قال أبو جهل : فقل إذن فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال ، وأنك كاره له . قال الوليد : فما أقول فيه ؟ قالوا : نريد قولا نقوله لوفود العرب إذا هم جاءوا الموسم ، وسألونا عن محمد : ما حقيقة أمره ؟ فإذا اختلفنا فى الجواب ، وقال بعضنا : هو شاعر ، وقال آخر : كاهن ، وقال ثالث : هو مجنون — استدلوا من اختلافنا على بطلان قولنا من أصله ، فهلموا نتفق على رأى واحد ، ووصف واحد . فقال بعضهم إذ ذاك : نقول كلنا : إنه شاعر . فقال الوليد : لا والله ، ما هو بالشاعر ، وليس أحد أعلم بالشعر منى ، ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، أليس قد عَرَضَتْ علىّ الشعراءُ شعرهم ؟ النابغة وعبيد بن الأبرص ، وأمية ابن أبى الصلت ، وغيرهم ؟ فلا يشبه كلامه كلامهم . قال آخر : نسميه الكاهن . فقال الوليد : لا والله ، ما هو بكاهن ، ولا سيما أن الكاهن يَصْدُق تارة ويكذب أخرى ، ومحمد لا يكذب قط . قالوا : هو مجنون . فقال الوليد : المجنون يخيف الناس ، وما يخيف محمد أحدا قط . فلما سمعوا هذا منه سكتوا . فقال له الوليد : فدعنى حتى أفكر فيه . فقال له أبو جهل عند ذلك : والله لا يرضى قومك حتى تقول أنت فيه قولك .

وكان من حق الوليد فى هذا الموقف أن يكون ثابت القدم ، جرىءَ النفس ، قوى الإرادة ، مؤثر للحق على الباطل ، والثواب الباقى على العرض الزائل ؛ فيعترف بلسانه بما اعترف به فى وجدانه ، ويشهد أن القرآن حق ، ودعوى محمد صلى الله عليه وسلم صدق ، لكنه غلب عليه الجحود والعناد ، فأعلن كفره الصريح فى ذلك الناد ، وأشار إلى القوم أنه سيرى لهم بشأن محمد رأيا ينقذهم به من حيرتهم ، ويهديهم إلى صالح أمرهم . فاشرأبت إليه عند ذاك الأعناق ، وسمّرت فى وجهه الحمالیق والأحداق .

وقد وصف الوحى عُجَرَ الوليد وبُجَرَه — فى تلك المُدَيْدَة التى كان يفكر فيها — وصفا استوعب فيه جميع الحالات الجسمية ، والانفعالات النفسية : التى تبدو عادة على كل من كُلّف تكليفَ الوليد ، وكان فى مثل منصبه . والكلام عنه مسوق للسخرية به ، والتعجيب من غفلته ، وقصور نظره ، على حد ما قيل فى مثله :

إن قيل كم خمس وخمس لارتأى ولظل ليلته يَعُدّ ويَحْسُب
خمس وخمس ستة أو سبعة قولان قالها الخليل وثعلب

قال تعالى : ﴿ إنه ﴾ أى الوليد حين طلب منه أن يأتى بوصف ينطبق عليه صلى الله عليه وسلم ﴿ فكر ﴾ جعل يقلب وجوه الرأى فى استحضار الأوصاف والألقاب المختلفة ، ﴿ وقدّر ﴾ أى وجعل يُعمل رويته فى الترتيب والتصنيف بين تلك الألقاب واختيار الأنسب والأليق منها . ثم قاطعه الوحى معجِّبا من أمره ، ناعيا سوء فعله ، داعيا عليه بما يشبه الاستعظام له والتفخيم ، وهو إنما يريد الاستهزاء به والتبكيت ، فقال : ﴿ فقتل كيف قدّر ﴾ أى قبحه الله ! ما أشد هوسه فى أمر ذلك التقدير الذى اجتهد أن يقدره ! وفى استنباط اللقب الذى كان يحاول أن يستنبطه ! وبلغاء العرب إذا قالوا قولا فى أمر ، أو حكوا حكما على شخص ، وتوقعوا إنكار المخاطب لما قالوا ، أو استبعاده للحكم الذى حكموا — عادوا فكرروا قولهم مؤكدين مؤيدين ، ويصدّرونه بحرف العطف . [ثم] كأنهم يقولون للمنكر : مهما استغرقت من زمن فى الإنكار والرد فإن قولنا أو حكمنا هو الحق الذى لا ريب فيه ، فيقول شاعرهم فى إظهار حبه لمحبوبته مثلا : " ألا يا اسلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى " : توقع فى قوله " ألا يا اسلمى " الأول الإنكار عليه ، وأن المنكر سوف يطيل فى لومه وعذله ، فقال : [ثم] أى بعد كل ما تقوله أيها المنكر وتسرده من كلمات اللوم والعذل أعود إلى قولى الأول ، وأدعو لمحبوبتى بقولى لها " اسلمى " ، وهكذا المعنى فى قوله فى المرة الثالثة : "ثمت اسلمى " .

والكتاب المنزل إنما يورد خطابه موارد العرب فى خطابهم ، ويتصرف فيه تصرفهم فى مناحى تراكيبهم ؛ فهو بعد أن دعا على الوليد لما اقترف من بشاعة التفكير والتقدير عاد فكرر دعاءه عليه مؤكدا قاطعا على المنكر إنكاره فقال : ﴿ ثم قتل كيف قدّر ﴾ .

تركنا الوليد يفكر ويقدّر ، ولنرجع إليه لنرى ماذا فعل بعد : قال تعالى : ﴿ ثم نظر ﴾ أى بعد أن فكر وقدّر ، وظفر باللقب الذى ظنه فى زعمه أشد انطباقا على النبى من غيره — رفع بصره إلى القوم المحتشدين فى النادى وجعل يدير نظره فى وجوههم . وكان نظره إليهم أولا نظراً هادئا لا عبوس معه ولا كلوح ، وإنما كل ما أراد — أن يشعرهم بأنه أصاب المحز ، ووقع على الضالة المنشودة . حتى إذا استجمع القوم ما انتشر من نفوسهم ، ورآهم قد تهيئوا لسماع كلامه — عبس وقطب حاجبيه محاولا فى ذلك استهواءهم والتأثير فيهم ، كما يفعل المنوم تنويما مغنطيسيا فى هذه الأيام . وهذا معنى قوله : ﴿ ثم عبس وبسر ﴾ أى قطب حاجبيه أشد التقطيب متهيئا للكلام وإعطاء الحكم القطعى .

ولما كان رأيه الذى سيبديه للقوم ، والوصف الذى اختاره له صلى الله عليه وسلم — ناشئا عن محض كبر ، وغمط للحق ، وإعراض عن الإيمان — عبر الكتاب عن رأيه هذا بأنه إدبار

إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾

واستكبار ؛ فقال : ﴿ ثم أدبر واستكبر ﴾ أى ثم أبدى للقوم رأيه فيما يجب أن يلقب به محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان ذلك الرأى محض إدبار ، وتول عن الحق واستكبار ، ولم يكن فيه أثر مما شعر به فى قلبه من حلاوة القرآن وطلاوته ، وقوله فيه : "إنه ليس بشعر ولا بسحر ولا جنون إن هو إلا كلام الله" . عرف كل هذا وأقر به أولا ، حتى إذا شهد النادى واحتف به القوم جحد وأنكر ، وأدبر واستكبر ، فضل بذلك وأضل ، واستكان لوسوسة الشيطان وزل .

والمدّة التى فكر فيها الوليد وقدّر ، ثم أبدى هذا الرأى المنكر — لم تكن طويلة حتى يعبر عن كل فترة من فتراتها بثم التى تفيد البعد والتراخى ، لكن القوم لما كانوا فى شوق شديد إلى معرفة ما كان يقدّره الوليد ويدبره من المكايد كانت المدة بالنسبة إليهم طويلة ؛ فكان بين تفكيره وتقديره وبين نظره إلى وجوههم وبين عبوسه وبسوره وبين تصريحه بما صرح به أخيرا من القول الدال على إدباره واستكباره — فترات طويلة فى نفوسهم بحيث يصح التعبير عنها بثم .

ثم فسر الوحى تلك الكلمة التى قالها الوليد للقوم ، واللقب الذى عرضه عليهم فكان به مدبرا مستكبرا — بقوله : ﴿ فقال إن هذا ﴾ أى ما هذا القول الذى يقوله محمد ﴿ إلا سحر يؤثر ﴾ أى يروى مثله عن الأشوريين والبابليين ، وقدماء الهنود والمصريين ، أما رأيتموه يفرق به بين الرجل وأهله ، والوالد وولده ، والسيد وعبده ؟ ؟

ثم أكد رأيه بأنه سحر معروف فى الأمم القديمة وليس من كلام الله بقوله : ﴿ إن هذا ﴾ أى ما هذا القول ﴿ إلا قول البشر ﴾ أى مثل قول البشر الذين عاشوا فى القرون الماضية ، ومارسوا السحر فى الأمم الخالية . وانظر كيف قال : (فقال إن هذا إلا سحر) ولم يقل (ثم قال) — لأن قوله تفسير وبيان لإدباره واستكباره المتجليين فى رأيه الفائل ، فكان المقام للفاء المفسرة من دون تراخ . وكذلك قوله : (إن هذا إلا قول البشر) أتى به من دون عاطف لكونه بيانا وتوكيدا .

وسياق الآيات فى استنكار قول الوليد واستبشاع رأيه فى اختيار ما اختاره من تلقيبه صلى الله عليه وسلم بالساحر مع ظهور كذب ذلك — يشبه قولهم فى عبارتهم المشهورة "سكت دهراً ونطق كفراً" ؛ فإن الوليد أطال التفكير والتقدير ، وتفنن ما شاء فى التخييل والتصوير ،

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩)

ثم لم يأت فى آخر الأمر إلا بالرأى الفطير ، والقول التافه الحقير . ومع هذا فإن القوم المحتشدين فى النادى هتفوا له مذ سمعوا قوله ، فارتج النادى بهتافهم ، ثم تفرقوا معجبين بقوله ، متعجبين من دهائه ووفور عقله ! ! !

قوله : ﴿ سأصليه سقر ﴾ تفصيل لما أدمجه فى قوله : (سأرهقه صعودا) كما مرت الإشارة إليه . و (سقر) اسم من أسماء جهنم ، وهو من " سَقَرَتْهُ الشمس " إذا لوّحته ، وآلمت دماغه بحرها . و " السقرة " شدّة وقع الشمس . و " الساقور " الحديدة تحمى ويكوى بها الحمار . و " إصلاؤه سقر " تعريضه لنارها ، وجعله يقاسى حرها ، والضمير يرجع إلى الوليد .

وقوله : ﴿ وما أدراك ما سقر ! ! ﴾ استفهام يراد به التعجيب من هول سقر ، وأنه مهما فكر المفكر فيها لا يمكنه أن يعرف من أمرها سوى ما عرّفه به الوحى ، ومن ذلك أنها ﴿لا تبقى﴾ على شىء يُلقَى فيها إلا أهلكته ، ﴿ ولا تذر ﴾ أى لا تدع أحدا من الفجار يحاول الهرب منها إلا ناشته واحتجنته .

وقوله : ﴿لواحة للبشر﴾ مؤكد لما يفهم من كلمة (سقر) ، وهو تلويح الجسم وتغييره إلى سواد ؛ فلواحة أى مغيرة للون الجسم : فَعَّالة من " لاحته الشمس " . ويقال فى الأكثر " لوّحته الشمس " .

[والبشر] جمع بشرة ، وهى ظاهر جلد الإنسان ، وليس المراد به الناس الذى يكنى بهم آدم فيقال : "آدم أبو البشر" وإن كان هذا المعنى هو المتبادر من اللفظ . فالمعنى أن دار العذاب المسماة سقر تلفح وجوه المذنبين بها ، وتسفع جلودهم ، وتغير لون أبشارهم إلى السواد من شدّة ما ينزل بهم من العذاب .

ولعل السر فى قوله (لواحة للبشر) مع قوله قبله (لا تبقى ولا تذر) الإشارة إلى أن أخف حالات العذاب فى سقر لا يطاق ولا يحتمل . ومن يُطيق أن يُعرَض جسمه على النار فيَصْلَى حرها إلى حد أن تسود بشرته ، وتمجل[1] من لذعها جلدته ؟ ؟ لا يطيق هذا أحد ؛ فكيف به إذا عرض على سقر فى أشدّ أحوالها ، وأفظع أهوالها ؟ وهو المعبر عنه بقوله (لا تبقى ولا تذر) .

(١) مجلت يده كنصر وفرح : نفطت وقرحت وتكوّن بين جلدها ولحمها ماء .

عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾

وقدفسر بعضهم (لواحة للبشر) بأنها تحرق الجلود حرقا.وذهب آخرون إلى أن تفسير (لواحة) بمغيرة ومسوّدة ومحرقة لا يتسق مع قوله قبله (لاتبقى ولا تذر) المفيد أنها تهلكه إهلاكا وتمحقه محقا،وقال إن معنى (لواحة) لماعة : يريد أن سقر لشدّة فورانها، وانفجار نيرانها،ورميها بشرر كأنه القصر، أو الجمالات الصفر — تلوح وتظهر لأنظار البشر من مسافات بعيدة ، ويكون المراد بالبشر فى الآيه بنى آدم ؛ فهى لماعة لهم ، بارزة إلى أنظارهم : يرونها من غير استشراف ولا مدّ أعناق ؛ فلواحة فعالة من "لاح البرق" إذا أومض ولمع . ويقولون "لوح إليه بثوبه" إذا رفع الثوب وحركه ليراه من بعد فيقبل عليه، وهذا كما إذا أردت أن تصف بركانا عظيما، يقذف نيرانه وحممه بشدّة وعنف إلى عنان السماء بحيث يرى من مسافات بعيدة — فتقول مثلا : "بركان لواح ، ترى مقذوفاته من سائر النواح" .

ثم ذكر الوحى من صفات تلك الدار أن ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ وهم خزنتها الموكلون بأمرها على ما يعلم الله من حقيقة ذلك وسره ، كما يعلم سبحانه الحكمة فى كونهم (تسعة عشر) ، لا أقل ولا أكثر. وسيأتى فى صريح الوحى أن أولئك الخزنة من جنس الملائكة ، ولكن (التسعة عشر) المذكورين هنا هل هم تسعة عشر شخصا من الخزنة أو صنفا أو صفا أو نقيبا أو زعيما — الله أعلم بجميع ذلك ، ولم يكلفنا البحث فيه ، بل أشار إلى تعذر معرفته ، وأنه مما لاطاقة للخلق بإدراكه مذ قال تعالى : (وما أدراك ما سقر ؟) ولا سيما إذا كان المقصود بالخطاب فى (ما أدراك ؟) صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، فيكون غيره أولى وأجدر بعدم معرفته . وكل ما علينا اعتقاده هو أن تلك الدار ذات الأهوال المذكورة فى الكتاب حق ، وأنها ستكون مأوى للفجار، الذين كفروا بالله وجحدوا الحق فى هذه الدار .

ولما ذكر الوحى فى صفة النار أن (عليها تسعة عشر) فتح باب الجدل للمكابرين المشككين: كأبى جهل وأحزابه ، فجعلوا يقولون : ماهؤلاء التسعة عشر ؟ ولماذا كانوا تسعة عشر ولم يجعلوا عشرين ؟ أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر ؟ بل ذهبوا فى الاستهزاء بالوحى إلى أبعد من هذا؛ فقال أبو جهل لقريش: "ثكلتكم أمهاتكم . أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد من هؤلاء الخزنة التسعة عشر ؟" فقال أحدهم — وهو أبو الأشد بن أسيد الجمحى ، وكان مشهورا بالقوة

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا

والبطش — : "أنا أكفيكم سبعة عشر ، فاكفونى أنتم اثنين فقط". وهكذا كانوا يشاغبونه صلى الله عليه وسلم ويستهزئون بالوحى المنزل عليه ، ويصرفون قلوب العرب عن الاهتداء به ، وأخذ العبرة منه . والنبى صلى الله عليه وسلم ثابت القلب ، مطمئن النفس ، واثق بوعد الله أنه ناصره ومظهر دينه ؛ فكان يجيبهم من دون امتعاض ولا ارتباك بما يأمره ربه أن يقول لهم ، فأتى أبا جهل وأخذ بيده فى بطحاء مكة وخوفه قائلا : (أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى) أى يوشك أن يحل بك العقاب الإلهى ، فاحذر لنفسك . فأجابه أبو جهل : "والله لاتقدر أنت ولا ربك أن تفعلا بى شيئا" ثم ما لبث أن أخذه الله بالنكال فى وقعة بدر .

وقد نزلت هذه الآيات فى صدد الرد عليهم وتوبيخهم على ما كان من استهزائهم ؛ فقال تعالى: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ أى أن خزنة النار ليسوا بشرا مثلكم أيها الجاحدون ؛ فتصاولوهم وتقووا عليهم ، إنما هم ملائكة ذوو أيد وقوة فوق قوة البشر ؛ فاسألوا عنها إن شئتم قوم عاد وثمود وأهل سدوم وعموراء ؛ فهم يخبرونكم أنهم لقُوا من تلك القوة ما لا قبل لهم به ، فخربت ديارهم ، وعفت آثارهم ؛ وكذلك هى فى جهنم إن حاولتموها تطبق عليكم ، وتأخذ بأكظامكم وتشبعكم عذابا ونكالا ، فلا تسألوا عن عدة هذه القوة وأشكالها فليست العبرة بالعدد ، ولا تخلطوا الجد باللعب ، وتصرفوا قلوب الناس عن استماع الوحى والانتفاع بهديه .

ثم عَجَّبَ الوحى من حال أولئك المكذبين المستهزئين الذين لم يأخذوا من آيات القرآن عبرة وعظة ، ولم يخافوا مما خوفهم به من سقر وأهوالها ، وإنما كان مكان العبرة فتنة لهم ، وضلال عن الحق ، واشتغال بما لا فائدة لهم به من ظاهر القول ؛ فتعلقوا بكلمة (تسعة عشر) ، وتساءلوا عن هذه العدة وسببها وحكمتها : مما لو أريدوا على فهمه وتعقله — وهو من شئون العالم الأخروى — لعسر عليهم تعقله ، بل لازدادوا إشكالا ، وأوغلوا بعدا عن التصديق وضلالا ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ .

[عدتهم] أى عدة خزنة سقر فى قولنا عنهم إنهم (تسعة عشر) ، و (فتنة) يعنى ضلالا وميلا وإعراضا عن الحق ، وليس المراد أنه تعالى أوحى إلى نبيه بذلك ليفتتن الكافرون به ، وإنما كانت نتيجة الوحى بالنسبة إليهم ضلالا وكفرا بالنظر إلى عنادهم فى باطلهم ، وجمودهم على ما ورثوه من تقاليد آبائهم ، أما النتيجة والعاقبة بالنسبة إلى غير الكافرين وهم المؤمنون به

لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ

عليه الصلاة والسلام ، وإلى أهل الكتاب الذين شموا رائحة الوحى ولهم عهد بالكتب المنزلة وأساليب الخطاب الإلهى فيها — فإن الفريقين استفادوا من الآيات المذكورة ، فالذين أوتوا الكتاب "استيقنوا بها" أى أيقنوا صحتها ، لورود نظائر لها فى كتبهم المقدسة ؛ فكم فى هذه الكتب من أخبار عن العالم الأخروى ، وعالم الغيب ، وحوادث المستقبل ، أرسل فيها القول إرسالا ، وأودعت من الإغراب فى الوصف والإيغال فى التمثيل ضروبا وأشكالا .

ويكفى فى الاستشهاد على ذلك ما جاء فى "رُؤَى دانيال" من أسفار العهد القديم ، و "رؤيا يوحنا" من أسفار العهد الجديد .

وقد قال المفسرون من علماء أهل الكتاب : "إنه وإن يكن يوجد فى سفر دانيال حوادث غير اعتيادية فليس هذا بمستغرب لأنه يعمّ الكتاب المقدّس تقريبا" ، وقالوا فى رؤيا يوحنا "إن معناها عويص وهى مشحونة بمسائل محيرة لا يمكن حلها قبل تمة ألف السنة ، بل إن مسألة ألف السنة نفسها من جملة تلك المسائل المحيرة ولا يمكن أن نفهم هذه المسائل قبل وقوعها " .

وقالوا أيضا : إن كل ما جاء فى هذين السفرين من قبيل الرمز "وهو أن يشار بكلام حرفى إلى معنى روحى ، والرمز كثير الوقوع فى جميع الكتابات الشرقية ولا سيما الكتاب المقدّس"

فمثال ما جاء فيه من الرمز بالأعداد إلى معان غيبية أو مستقبلة "حيوانات حزقيال الأربعة التى لكل منها أربعة أوجه وأربعة أجنحة وأربعة جوانب" وملائكة رؤيا حنا " كانت سبعة وفى أيديهن سبع جامات وسبع ضربات" أما عدد أجنحتها " فكان ستا مرتبة أزواجا فكانوا بزوج يغطون وجوههم لأنهم غير مستحقين أن ينظروا إلى وجه الرب ، وبزوج يغطون رجليهم لأنه تعالى أجل من أن ينظر إليهما ، وبزوج يطيرون لقضاء مشيئة إلههم" و " كان للتنين الذى رآه سبعة رءوس وسبعة تيجان وعشرة قرون" وهذا كالحيوان فى رؤيا دانيال " فإن له عشرة قرون أيضا" .

فذكر هذه الأعداد من قبيل الرموز والأسرار ، وقد فسروا السر بقولهم "إنه حقيقة روحية لا يصل الإنسان إلى معرفتها بمجرّد ذهنه ولا يفهمها تماما فى هذه الدنيا ، وتسمى بعض التعالم

وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰنًا

أسرارا لما فيها من الإبهام والصعوبة على الفهم". قالوا : "ومن الأسرار غير المفهومة ما جاء فى رؤيا يوحنا من ذكر الكواكب السبعة ، والمنائر السبعة ، والمرأة المتسربلة بالقرمز" .

وقالوا أيضا فى وصف صعوبة فهم أحوال عالم الغيب : "إنه قد يكون فى الفردوس أمور فوق أفكار البشر بحيث لا توجد لغة قادرة على أن تعبر عنها ، وإذا كنا نحن معشر البشر فى دنيانا هذه لا يمكننا التعبير عن أفكارنا العادية حينما تكون حاسياتنا شديدة الانفعال ، فكم بالحرى إذا كان موضوع الكلام حقائق العالم الأزلى ، ووصف الأرواح المجردة عن المادة ، ووصف مختلف أطوارها " .

فقد تبين من هذا أن فى كتب أهل الكتاب رموزا وأسرارا عن شئون عالم الغيب يقصر الفهم دون إدراكها وتعقلها ، وأن علماءهم معترفون بوجود هذه الأسرار ، وبأن لها معانى صحيحة منها ما يفهمه الراسخون فى العلم ومنها ما لا يفهمونه إلا بعد وقوعه فى المستقبل أو فى العالم الأخروى . فلا بدع إذا لم يستغرب أهل الكتاب فى زمن نزول القرآن ما قاله تعالى من أن عدد خزنة سقر تسعة عشر كما استغرب المشركون الأصناميون ذلك . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب﴾ .

ويحتمل أن يكون المراد من كونهم يستيقنون أنهم يستدلون من مقاومة المشركين له صلى الله عليه وسلم ، وتألبهم عليه فى التكذيب والمشاغبة طورا ، والسخرية والاستهزاء تارة أخرى — أنه نبى كأنبيائهم ، مذ يرون حاله مع أولئك المشركين ، وصبره على أذاهم ، وثباته فى تبليغ أمر ربه كحال أولئك الأنبياء وصبرهم وثباتهم ؛ فيستيقنون ويصدّقون بصحة نبوته .

أما المؤمنون الخلص فإن ورود الوحى بأن خزنة سقر تسعة عشر لا يحيك فى نفوسهم أثرا من شبهة سوى ازدياد الإيمان بالله ، والتصديق بوحيه ، وإن خفيت عليهم الحكمة فيه ، ولا سيما حين يرون موافقة أهل الكتاب عليه ، واعترافهم بأن فى كتبهم مثله . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ويزداد الذين آمنوا إيمانا﴾ .

ويروى أن الصحابة لما سمعوا المشركين يقولون : " لا يعجز كل عشرة منا أن يبطشوا بواحد من أولئك التسعة عشر" قالوا لهم مستهزئين : "ويحكم ! أتقاس الملائكة بالحدادين ؟"

وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا

ومرادهم بالحدادين السجانون الذين يضعون الحديد فى أيدى المسجونين . وقد ذهب قولهم هذا مثلا فيقال : " لا تقاس الملائكة بالحدادين " فى التفرقة بين اثنين أحدهما طيب والثانى خبيث .

ثم إن استيقان أهل الكتاب وازدياد المؤمنين إيمانا يفهم منه بالضرورة بل يلزم منه عدم ارتياب الفريقين جميعا . ومع هذا فقد أكد الوحى استيقان الأولين وازدياد إيمان الآخرين بالتصريح بذلك اللازم أعنى عدم الارتياب ونفيه عن الفريقين معا فقال : ﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾ أى أنهم يستيقنون ويزدادون إيمانا ولا يرتابون ، كما تقول لآخر : " إنى أبغضك ولا يحبك قلبى " فإن إثبات البغض يستلزم نفى الحب . لكن العرب فى أساليب تخاطبهم اعتادوا التصريح بذلك اللازم تأكيدا للكلام ، وتقوية للحكم . على أن فى إعادته فى الآية تعريضا بأولئك الكافرين المشاغبين الذين أصبح دأبهم الارتياب بالوحى ، وتشكيك الضعفاء فيه .

وكذلك قوله تعالى : ﴿وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون الخ﴾ فإن قولهم هذا إنما هو أثر من افتتانهم ، ولازم من لوازمه ، ولكنه ذكره ليصف من ذلك الافتتان ، ويروى شيئا من أقوالهم ، وليضيف إلى الكافرين صنفا منهم ، وهم الذين فى قلوبهم مرض ، ويعنى بهم المنافقين ، وفى ذلك من التفنن فى التعبير ، وزيادة التقريع والتعيير — ما فيه ، كأنه يقول : كان من نتيجة ذكرنا لعدة الخزنة افتتان أولئك الكافرين وضلالهم ، وقولهم — ولا سيما المنافقين منهم — : ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾ .

و [هذا] إشارة إلى "تسعة عشر" فى عدة خزنة سقر ، و [المثل] القول السائر فى الناس ، المتداول على ألسنتهم ، ولا يكون إلا فى أمر ذى شأن وخطر ووصف مستغرب ، فالمشركون الذين سمعوا الوحى يخبر أن خزنة سقر تسعة عشر تعجبوا منه واستغربوه ، وعدوه فى جملة مايصح أن يسير مثلا بين الناس فقالوا : (ماذا أراد الله الخ) أى ماذا أراد بهذا القول الذى هو مثل فى الغرابة والبداعة ، فيخوفنا بواسطته من سقر ، وخزنتها التسعة عشر ؟

كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ

قوله ﴿كذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر قبل من الأمرين : افتتان الكافرين والمنافقين وارتيابهم بالوحي ، واستيقان الكتابيين والمسلمين وازديادهم إيمانا به ، ولا ريب أن الأولين كانوا من فتنتهم وارتيابهم على ضلال ، وأنّ الآخرين كانوا من استيقانهم وزيادة إيمانهم على هدى ، والله تعالى يضل من يشاء من الخلق ويهدى من يشاء منهم : مثل الإضلال والهداية اللذين كانا من نصيب الفريقين المذكورين .

وليس معنى إضلال الله فريقا وهدايته فريقا أنه تعالى يجبر كل فريق منهما على تناول نصيبه من الضلالة والهدى ، ولا أنه تعالى يكرههم على سلوك أى السبيلين شاء من سبيلى الخير والشر ، كلا ، فإن هذا الإكراه مناف للعدل الإلهى ، بل مناف لحكمة التشريع السماوى ، ولا يلتحم مع نصوص الشريعة المتواترة القطعية فى دلالتها على معناها : من أنّ العبد له إرادة واختيار هما مناط التكليف والمؤاخذة ، وكذلك كان الصحابة والسلف يفهمون من تلك النصوص : سأل سائل عليا عليه السلام فقال: "أكان مسيرك إلى الشام -يعنى لقتال أهلها- بقضاء الله وقدره ؟" فقال له : "ويحك ! لعلك ظننت قضاء لازما ، وقَدَراً حاتما ، ولو كان ذلك كذلك ، لبطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد . إن الله سبحانه أمر عباده تخييرا ، ونهاهم تحذيرا ، وكلف يسيرا ، ولم يكلف عسيرا ، وأعطى على القليل كثيرا ، ولم يُعْصَ مغلوبا ، ولم يُطَعْ مكرها ولم يرسل الأنبياء لعبا ، ولم ينزل الكتب للعباد عبثا ، ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظنّ الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار" اهـ .

وحضر "الواسطى" بعض الأربطة —جمع رباط للصوفية— فسمع مَنْ غَنَّى بقول العباس ابن الأحنف :

فأكثروا أو أقلوا من إساءتكم فكل ذلك محمول على القدر

فجنّ واستغاث وشق الجيب وحولق واستغفر وقال :"يا قوم، أما ترون إلى العباس بن الأحنف لا يكفيه أن يجنّ حتى يكفر ، متى كانت الفضائح والذنوب والعيوب محمولة على القدر ؟ ومتى قدّر الله هذه الأشياء وقد نهى عنها ؟ ولو قدّرها كان قد رضى بها ، ولو رضى بها ما عاقب عليها ، ولو قدّرها على عبده وعاقب عليها كان من الظلم الذى يقبح بالمخلوق ، فكيف بالخالق ؟ إنا لله ، لعن الله الغزل إذا شيب بالمجانة ، ولعن المجانة إذا قرنت بما يقدح فى الديانة" .

وما زال يقول هـذا وأشباهه حتى ردّ عليه أبو صالح الهاشمى فقال : "هوّن عليك يا شيخ ، فليس هذا كله على ما تظن ، القدر يأتى على كل شىء ، ويتعلق بكلّ شىء ، ويجرى على كل شىء ، وبكل شىء ، وهو سر الله المكتوم ، والعلم الذى يحيط بكل شىء ، وكل ما جاز أن يحيط به علم جاز أن يجرى به قدر ، وإذا جاز هذا جاز أن ينشأ عنه خبر ، وثمّا هذا التحارج والتضايق والشاعر يهزل ويجدّ ، ويقرب ويبعد ، ويصيب ويخطئ ، ولا يؤاخذ به الرجل الديان ، والعالم ذو البيان" اهـ .

أما النصوص التى يشبه ظاهرها أن يكون العبد مكرها لا اختيار له ، وتقول إنه تعالى هو الذى يضل ويهدى فمعناها أنه تعالى يشرع أمام البشر السبيلين : سبيلى الخير والشر ، ويرفع إلى أبصارهم النجدين : نجدى الهدى والضلال ، ولكل فريق منهم أن يختار لنفسه ما يوافق استعداده وتجره إليه إرادته وتربيتـه ومزاجه ووراثته وعوامل المحيط الذى يعيش فيـه ، وهذا الذى يختاره لنفسه منجذبا إليه بالجواذب المذكورة لا يقع إلا منطبقا على ما فى علم الله وإرادته ولوح تقديراته ، فلا يمكن أن يختار العبد لنفسه مالا يكون ثابتا فى العلم الأزلى القديم ، وثبوت ذلك فيه لا ينفى عن العبد صفة الاختيار ولا يسلبه حرية الإرادة ، لأن صفة العلم ليست سوى صفة تنكشف بها المعلومات لله تعـالى ، فهى لا جبر فيها ولا إكراه ، وقد ذكر ابن القيم فى كتاب "القضاء والقدر" نقلا عن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه أنه قال : "القدر علم الله" .

ولمـا كان مشرع السبيلين : سبيلى الخير والشر ، ورافع النجدين : نجدى الهدى والضلالة هو الله سبحانه وتعالى ، قيل فى بعض النصوص إنه هو الذى يضل هذا ويهدى ذاك ، وهو الذى قضى وقدّر على زيد بأن يعمل الخير فيـكون من أهل السعادة ، وقضى وقدّر على عمرو بأن يعمل الشر فيكون من أهل الشقاوة ، وقضاؤه تعـالى وقدره فينا خفيان عنا معشر البشر ، وإنمـا يظهران لنا ، ويقعان تحت أعيننا ، ماثلين فى سننه الكونية ، ونواميسه الاجتماعية ، التى بثهـا فى جنبات هذا العالم ، وركب بناءه عليها ، فكل شخص أو أمة تراعى سننه ونواميسه الحكيمة العادلة ينساق أو تنساق إلى بحابح السعادة والخير ، وكل شخص أو أمة تدابر تلك السنن والنواميس وتهمل العمل بها ينساق أو تنساق إلى مواطن التعاسة والشر .

فهذه السنن والنواميس البارزة لنـا هى مظهر قضاء الله وقدره الخفيين عنا ، بل هى لعمرى المرايا الصقيلة التى ينعكس عنها إلى أبصارنا ما فى اللوح السماوى من حكم الله وإرادته ومشيئته فى تدبير هذه الكائنات وفى سعادة البشر وشقاوتهم .

وقد قرر القرآن هذا الأصل المحكم فى مصير الأفراد والأمم فى غير ما سورة وآية من سوره وآياته : قال تعالى فى سورة الأنفال : (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين) ، وفى سورة الأحزاب : (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) ، وفى سورة فاطر : (فهل ينظرون إلا سنة الأولين . فلن تجد لسنة الله تبديلا . ولن تجد لسنة الله تحويلا) . وآيات أخرى بهذا المعنى فى الفتح والإسراء والمؤمن والحجر وآل عمران والنساء .

ويظهر من سياق هذه الآيات وإطلاق القول فيها أن تلك السنن محكمة لا تنسخ ، مطردة لا تتخلف ، عادلة لا تحابى ، صارمة لا تقبل شفاعة ؛ فمن اتقاها وراعاها من أى قبيل كان ، ومن أى بلاد كان ، ومن أى دين كان سعد وفاز . ومن استخف بها وأعرض عنها شقى وخاب .

فإذا لاحظنا هـذا ولاحظنا الآيات الناطقةَ بأن الإيمـان وحده هو مناط السعادة ، وأن الكفر وحده هو مناط الشقاوة — حكمنا بأن بين هذه السنن وبين الإيمان والكفر علاقة متينة ورحما ماسة ، وأن اتقاء هذه السنن ومراعاتهـا شعبة من شعب الإيمان ، وأن الاستخفاف بها والإعراض عنها شعبة من شعب الكفر .

وهـذا الموضوع لا يحتمل كلاما بأكثر مما تكلمنا ، وسر القضاء والقدر لا ينبغى الإشارة إليه بأكثر مما أشرنا ، والسعيد من وفق فنظر فى ملكوت السموات والأرض فاتعظ وازدجر ، وتصفح أحوال الشعوب والأمم كما أمره الله فقاس واستنتج واعتبر .

على أن المقام ربمـا وسع كلمة نحب ألا تفوتنا عملا بمـا أَمَرَنَا به القرآن من النظر فى الأمم وحالاتها ، ثم الاعتبار ببداياتها ونهاياتها ، فنقول :

أشرنا فى أطواء كلامنا السابق إلى أن البشر قد تجذبهم إلى سعادتهم أو شقاوتهم "جواذب" وإن شئت سميتها "عوامل" : من مثل الملة التى يمارسون شعائرها وأحكامها ، والحكومة التى تسيطر عليهم ، والعائلة التى تربى أطفالهم ، والمدرسة التى تعلم أبناءهم ، والمحفل أو النادى الذى يحتشدون فيه للحديث أو السمر أو اللهو أو البيع والشراء أو مختلف الأعمـال والمصالح — فالمراد من المحفل أو النادى ما يريده علماء التربية بقولهم "جماعة الأصدقاء والمعاشرين" — والوراثة التى تنقل إلى أبدانهم دَمَ آبائهم ومزاجهم وتكوينهم الجسمانى ، كما تنقل إلى نفوسهم طباع أولئك الآباء وغرائزهم وأخلاقهم وتكوينهم الروحانى ، والإقليم الذى يشربون ماءه ،

ويستنشقون هواءه ، ويذوقون حره وبرده ، ويقتاتون بمحصولاته . وهـذا المؤثر يسميه علماء علم النفس "البيئة الجغرافية" ، ويسمون العوامل الأخرى "البيئة الاجتماعية" .

هذه "الجواذب" أو "العوامل" هي التي تعمل في تكوين الأمم ، وهي التي تعرف بها حالتها الاجتماعيـة ، ودرجتهـا في سلم المدنيـة ؛ فإن صلحت تلك العوامل واستقامت صلحت الأمم واستقامت في أفرادها وجماعاتها ؛ إذ ليست الجماعات إلا فردا متكررا ، وإن ساءت وفسدت ساءت أحوال الأمم ، وانحط شأنها ، وتقهقر عمرانها .

هذه الجواذب هي التي تجتـذب البشر إلى ملابسة الخير أو مواقعة الشر ، وتقودهم من أيديهم إلى مواطن السعادة ، أو مواطن الشقاوة ، وهي التي نستدل بها ، ونمشي على أثرها في معرفة ماهو قضاء الله وقدره في هذه الأمة ، أو تلك الأمة .

فمهما رأينا من كمال تلك العوامل وسدادها ، وثبات أمرها ، وحسن نظامها — فهناك فوز الأمة وفلاحها ، وتجلى حكم القضاء والقدر فيها ، ومهما رأينا من نقص "العوامل" وخطلها ، واضطراب أمرها ، وقبح نظامها — فهناك هلاك الأمة ودمارها ، وحكم القضاء والقدر فيها .

هـذه العوامل هي التي يعنى بها الأنبيـاء والحكماء والمشرعون والعلمـاء الاجتماعيون ، فيجتهدون في إصلاحها ، وتقويم أودها ؛ حبا في إصلاح أممهم ، وترقية شأن شعوبهم ، ولم يأل الدين الإسلامي في النصح لأبنائه بوجوب توفيرها وتنقيتها من الشوائب ؛ كي تبقى صالحة لسعادتهم في دنياهم ، ونجاتهم في أخراهم .

قد يقال : إذا كانت هـذه العوامل هي مظهر قضاء الله وقدره في البشر ، وعلى سلمها يُنزلهم ربهم ويُصعدهم ، ويُشقيهم ويُسعدهم ؛ فأنّى لنا الوصول إليها بالإصلاح والترميم ، والتغيير والتبديل ؟ وهل هذا إلا افتئات على القدر ، وتداخل في وظيفته ؟

والجواب على هذا آيات القرآن نفسها ؛ فإنها إنمـا أمرتنا بالنظر في أحوال الأمم والاعتبار بمـا جرى ؛ لنتمسك بمـا كان سببا في نجاتها وسعادتها ، ولنتجنب ما كان سببا في هلاكها وشقاوتها . ونحن في كلتا الحالتين بالغون ما قضاه الله وقدره فينـا "اعملوا فكل ميسر لمـا خلق له" .

وهذه الأمم المعاصرة لنا — معشر المسلمين — ارتفعت وعزت وغلبت بما كان من عنايتها بأمر العوامل المذكورة ؛ فليس الدين لديها اليوم ، ولا طرز الحكومة ، ولا نظام العائلة ، ولا قوانين المدرسة والتربية العامة وسائر مقومات الاجتماع — كما كانت عليه فى عصورها الوسطى .

تقول : والإقليم والوراثة كيف يكون إصلاحهما ؟

فأما إصلاح "الإقليم" فيكون بتجفيف المستنقعات ، وغرس الأشجار ، وإنشاء الغابات والحراج ، وحفر الترع ، وجر المياه النقية للشرب .

وأما إصلاح "الوراثة" وتحسين حالة النسل والإخلاف فقد أخذ الغربيون فى الأيام الأخيرة يعتنون به ، ويستفيدون مما يرشدهم إليه العلم الصحيح ، والتجربة القاطعة بشأنه .

وهذا ، أو ذاك ، أو ذلك — مما يدخل تحت الطاقة ، ويستطيعه البشر . وقد أصبحت المكابرة فيه ضربا من الجهل والغباوة بعد ما رأينا حسن أثره واضحا جليا فى الأمم التى غلبت علينا ، وأصبحت المتحكمة فينا .

وعجيب من مسلم أن يجرؤ على القول بأن فى إصلاح الدين ، أو الحكومة ، أو نظام العائلة ، أو طريقة التعليم والتأليف ، أو سائر عوامل الحضارة والعمران — مخالفة للدين ، أو تدخلا فى وظيفة القضاء والقدر ، وهذا الشارع الأعظم صلى الله عليه وسلم يجعل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ركنا من أركان الدين ، وليس هو فى الواقع ونفس الأمر إلا مراقبة دائمة على الدين والمتدينين به ؛ فلا يتسرب إليه أو إليهم ما ليس منه فى شىء فيفسد ويفسدون .

فالأمر والنهى إذن إصلاح ، والآمرون الناهون مصلحون . وكان بعض العارفين يقول : "ينبغى لأهل كل مذهب فى كل عصر أن يكون فيهم عالم كبير ينقح مذهبهم ، وذلك لأن الأحكام تتغير بتغير الزمان" .

ومما يحسن إيراده هنا أن الشارع صلى الله عليه وسلم نبهنا إلى تأثير ناموس الوراثة ، وأشار إلى أن فى إصلاحه إصلاحا للنسل والذرية مذ قال : "تخيروا لنطفكم ؛ فإن العرق نزاع" يريد تزوجوا كرائم النساء ؛ فإن أولادكم من زوجاتكم يرجعون فى طيب الأخلاق وقبحها إلى

أجدادهم من أمهاتهم، أما رجوعهم فى أخلاقهم إلى أجدادهم من جهة آبائهم فبالطريق الأولى . وليس فوق هذا إرشاد وتعليم لنا فى أن نصلح شئوننا ، وعوامل اجتماعنا ، حتى ما يظن أنه مما لا يدخل تحت طاقتنا كمسألة الوراثة هذه . وقال أبو الأسود الدؤلى مخاطبا أولاده :

وأول إحسانى إليكم تخيرى   لماجدةِ الأعراقِ بادٍ عفافُها

وبالجملة فإن الدين والعلم والتجربة والمشاهدة اتفقت كلها — وإن خالفها الجهل والتقليد والمكابرة — على أن سعادة الأمم وشقاءها أمران ميسوران لها ، داخلان تحت طاقتها . وليس معنى أن الله يضلها ويهديها إلا أنه تعالى يمهد تحت مواقع أبصارها طريق الهدى والضلال ؛ فهى إذا اختارت لنفسها طريق الهداية اختارته وسلكته بمشيئة الله وإرادته وسابق علمه، وإذا اختارت لنفسها طريق الضلال اختارته وسلكته أيضا بمشيئته تعالى وإرادته وسابق علمه . وما أحسن ما قاله نبينا صلى الله عليه وسلم : " أيها الناس ، إنهما نجدان : نجد الخير ونجد الشر ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير ؟ " ، ويشبه هذا ما قاله الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر : " إن الله أراد بنا شيئا وأراد منا شيئا ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراده منا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا ؟ " .

وأوضح السبل الموصلة إلى سعادة الأمم هو إصلاحها دينها ؛ فلا يكون فيه حشو أو بدعة ، أو تكليف مما لم يأت به وحى ، ولا خبر صادق . ثم إصلاح بقية المقومات والعوامل التى قلنا إنها هى التى تجذب بضبع الأمم إلى مراقى الكمال والعزة والغلبة . كما أن أقرب الطرق التى تأخذ بالأمم توا إلى هاوية الذلة والمسكنة والدمار والاضمحلال — هو ترك الدين محشوا بالبدع ، وبما لا يرضى الله ورسوله من الآراء والتعاليم والأقوال البين سقطها ، الظاهر غلطها . ومثل ذلك فى الضرر أن نترك كل قديم على قدمه من أوضاع حكوماتنا ، ونظام عائلاتنا ، وأصول التدريس والتأليف فى مدارسنا ومؤلفاتنا ، وسائر مقوّمات اجتماعنا . وقد تبين فساد ذلك كله وعدم إيصاله إلى بحابح الحياة السعيدة ؛ فإن جميع ذلك سبل ضلال : بسطها الله تحت مواقع أبصارنا ، وبالغ فى تحذيرنا منها فى محكم كتابه ؛ فما علينا إلا التنكب عنها ، والاستعاذة به تعالى منها ؛ فنكون من الفائزين المهتدين إن شاء الله .

وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ

بعد أن ذكر الأصل الكلى فى أن سعادة البشر وشقاوتهم أمران مرتبطان بسلوك ما أشرعه الله لهم من طريق الخير والشر، وأن ترجيحهم أحد الطريقين مستمد من علم الله الأزلى ومستند إلى مشيئته القديمة، وأن أبا جهل ورفاقه المستهزئين بالوحى القائلين "أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر؟" لم يكونوا من أمرهم على بصيرة، ولم يختاروا لأنفسهم إلا أقبح الخصال، ولم يسلكوا إلا طريق الضلال — عاد إلى توبيخهم على قولهم المذكور الدال على غباوتهم، وفرط جهلهم بما يجب لله من التعظيم والتوقير والوقوف عند حدود الأدب، وتنبيههم إلى أن خزنة جهنم إن كانوا تسعة عشر فليس ذلك عن قلة فى جنود الله؛ فإن جنوده كثيرة لا يعلمها إلا هو.

و[الجنود] جمع جند، وهم الأعوان والأنصار والعسكر. وقد يراد من الجند أحيانا صنف من الخلق على حدة: يقال "هذا جند من الخلق قد أقبلوا" أى طائفة من الخلق. وفى الحديث: "الأرواح جنود مجندة". ومنه المثل "إن لله جنودا منها العسل". وربما كان المعنى الثانى هو المراد فى الآية.

وبديهى أن جنود الله التى يستتب له بها السلطان الإلهى فى ملكوته، والقهر الربانى على ما خلق ويخلق فى عالمى دنياه وآخرته — ليست عسكرا حربيا، ولا جندا بشريا، وإنما هى وسائط إجراء وتنفيذ وتصرف مطلق: منها ما علمناه ووقفنا عليه بالجملة فى هذه الدار. ومنها ما لم نعلمه بعد ولم نكلف البحث عنه، وهو غيب عنا، ولكننا نؤمن به وبما ورد على لسان الشارع من أحواله وشئونه على الوجه الذى يليق به، وينطبق على حكمة خالقه، ومن هذه الجنود أو الوسائط الغيبية الملائكة.

وكلنا معشر البشر نشعر فى أنفسنا أننا مسخرون للقهر الإلهى، وخاضعون إلى ما يراد منا فى هذه الدار الدنيا. وقد أخبر الوحى الصادق أن لله جنودا جعلها وسائط فى تنفيذ مشيئته، وتتميم إرادته فى خلقه. وقد سمى تلك الوسائط ملائكة. وكما قامت هذه الوسائط فى إيفاء وظيفتها فى هذه الدار ستقوم بمثل هذه الوظيفة فى الدار الأخرى على النحو الذى يريده الله تعالى، ويناسب حال تلك النشأة.

ولماذا رأى أولئك المستهزئون المكذبون تحديد عدة خزنة جهنم بتسعة عشر أمرا غريبا وهو شأن من شئون عالم آخر له سنن ونواميس خاصة به، ولا يستغربون من عالمهم هذا

وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾

— الذى خلقوا من طينته — أحواله العجيبة ، وأطواره الغريبة ؟ وهذه قواته المختلفة ، وعناصره المتعددة ، وما شاء الله من مواده ومعادنه ، وحيوانه ونباته ، وشموسه وأقماره، وثوابته وسياراته — ولكل منها عدد خاص ، ونسب معينة ، ومقادير محدودة ، وتراكيب معلومة — فلا نسمعهم يسألون لماذا كانت البروج اثنى عشر ولم تكن أكثر أو أقل؟ ولماذا كانت حلقات زحل ثلاثة ولم تكن خمسة ؟ وأقماره ثمانية ولم تكن عشرة ؟ وألوان الشمس سبعة ولم تكن عشرين ؟ ولماذا كان الملح مركبا من عنصرين فقط إذا انحلا وتفرقا ضرا وأفسدا ، وإذا اتحدا وتركبا نفعا وأصلحا ؟ ولم يكن المقدار والخاصة على خلاف ذلك؟ وهكذا مما لا يكون السؤال عن سره إلا ضربا من العنت والمماحكة وطمع المخلوق فيما كان من خصائص الخالق .

لقد غفل المشركون المستهزئون عن سر التشريع الإلهى ، وذهلوا عن الحكمة فى إنزال الوحى السماوى ﴿ وما هى ﴾ أى تلك الحكمة التى أنزل القرآن من أجلها ﴿ إلا ذكرى ﴾ وموعظة ﴿ للبشر ﴾ فيخافون ربهم ، ويتحاجزون بينهم ، وتنتظم أحوالهم ، ويسعدون فى دنياهم وأخراهم ولم تكن الحكمة قط إفهام البشر حقائق النشأة الأخرى ، وجعلهم يدركون أحوالها وقوانينها بالكنه ، فإن هذا غير مستطاع لهم ، وتعقله لا يدخل تحت مقدورهم .

والضمير فى قوله ﴿ وما هى ﴾ يرجع إلى الآيات السابقة وما أشبهها مما فيه بعض الوصف لعوالم الغيب ، أو أنه يرجع إلى الحكمة المفهومة للخاطب بمعونة المقام كما أشرنا إليه فى حل الآية وإرجاع الضمير إلى غير مذكور كثير فى القرآن وفى كلام العرب ومثله قول أبى نواس :

ألا يا ابن الذين فنوا وماتوا أما والله ما ماتوا لتبقى
وما لك فاعلمن فيها مقام إذا استكملت آجالا ورزقا

أو أن الضمير يرجع إلى الحكاية والشان والقصة ، وهو ما يسميه النحاة ضمير الشأن والقصة .

كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾

تقدّم أن ﴿كلا﴾ كلمة ردع وزجر ؛ فالمعنى ليرتدع أولئك المستهزئون بالوحى — الذين اتخذوا من ذكر عدّة خزنة سقر سبيلا إلى إنكارها ، والتشكيك فيها — عن فعلهم وسوء صنيعهم .

ثم أقسم بالقمر أن سقر حق ، وأنها إحدى الدواهى التى يمنى بها أولئك المكذبون ، وقد تقدّم بيان الحكمة فى إقسام الله تعالى ببعض مخلوقاته والسر فيه ، أما قسمه هنا بالقمر والليل والصبح فلتنبيه الأنام إلى ما فى خلقها من جميل الصنع ، وبديع الإحكام ، وما قارن ذلك من الرفق بهم وتقسيم أوقاتهم ، وتقدير أعمالهم ، بما فيه كل الخير والنفع لهم .

وفى الآية إيماء إلى أن الشمس والقمر مخلوقان لله ، وأنهما فى حركاتهما وإدبارهما وإسفارهما ونشوء الليل والنهار عنهما — مسخران لأمره ، ساجدان بين يدى قدرته وقهره ؛ فكيف يحسن بالبشر أن يعبدوهما ويكفروا بالإله الذى خلقهما ؟

وقوله ﴿إذ أدبر﴾ قرئ هكذا ، وقرئ أيضا (إذا دبَرَ) و (إذا أدبر) ولا فرق بين دبر وأدبر فى المعنى : يقال : دبر النهار أو الصيف — إذا انصرم . ودبر فلان : ولى ، كأدبر . واستعماله من دون همز قليل سوى قولهم : "أمس الدابر" . فانه شائع .

يقسم تعالى بإدبار الليل ، وإقبال النهار ، وهذا معنى ﴿والصبح إذا أسفر﴾ أى أضاء وتبلج ، وقال بعض أهل اللغة : إن من قرأ (دبر) بلا همز أراد أنها من دَبَرَ الليلُ النهارَ إذا خلفه وأتى على أثره ، ودبر فلان فلانا إذا جاء خلفه ؛ فهو تعالى يقسم بالليل مذ يعقب النهار ، وبالنهار مذ يسفر عقب الليل .

وضمير ﴿إنها﴾ يرجع إلى سقر كما مرت الإشارة إليه ، وقوله ﴿الكبر﴾ جمع الكبرى مؤنث الأكبر ، وتجمع الكبرى على كبريات أيضا ، أى أن سقر المعدّة للمكذبين إحدى الدواهى الكبار والأمور العظام التى ما اعتادوا بعدُ رؤية أمثالها ؛ فهى واحدة من بينهن لا نظير لها فى العظم والهول كما تقول : صاحبك فلان أحد الرجال ، ولا تريد إلا أنه واحد من دهاتهم وشياطينهم .

نَذِيراً لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾

وقوله ﴿ نذيرا للبشر ﴾ [نذيرا] إما أن تكون مصدرا غير قياسي لأنذر إنذارا ونذيرا ، كما يقال أوعد إيعادا ووعيدا وأعولت المرأة إعوالا وعويلا ، وتعرب تمييزا . أى أن سقر إحدى الكبر من جهة تخويفها وإنذارها للبشر ، كقولهم : فلانة إحدى النساء عفافا . يريدون أن لها شأنا بينهن ورجحانا عليهن من جهة عفافها ، وإما أن تكون اسم فاعل على غير قياس أيضا لأنذره فهو منذر ونذير كما يقال : آلمه العذابُ فهو مؤلم وأليم ، وأوجعه الضربُ فهو موجع ووجيع ، ويعرب (نذيرا) إذ ذاك حالا من (إحدى الكبر) على إرادة معنى العذاب فيها لكى يصح مجىء (نذيرا) حالا منها ، وإلا وجب أن يقال : نذيرة ، بالتأنيث لكونه وصفا لإحدى الكبر المؤنث ، وليس "نذير" مما يستوى فيه المذكر والمؤنث ، لأنه بمعنى اسم الفاعل لا بمعنى سم المفعول فالله تعالى يقسم بأن سقر هى إحدى البلايا أو الدواهى العظام منذرة للبشر ، محذرة لهم نفسها ، وقوة بطشها ، وروى عن الحسن البصرى أنه قال : " والله ما أُنذر الناس بشىء أدهى منها ولا بداهية أعظم منها " .

وبعد أن عم فى كلمة [البشر] عاد فخص منهم أولئك الذين يهمهم شأن أنفسهم ، وينظرون فى مستقبل أمرهم ، وهم موضع الخطاب ، ومحط الأمل ، فقال : ﴿لمن شاء منكم﴾ الخ .

وقوله (لمن) بدل من (للبشر) أى أن سقر منذرة لكم أيها البشر وخاصة ﴿ لمن شاء منكم أن يتقدم﴾ فيكون سابقا إلى الخير وممارسة الفضيلة فينجو ﴿أو يتأخر﴾ فيخلد إلى الشر وممارسة الرذيلة فيهلك .

وجعل بعض المفسرين قوله ﴿لمن شاء﴾ الخ مستأنفا لا بدلا مما قبله ، على أن يكون بمعنى قوله تعالى : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) وقال فى إعرابه : (أن يتقدم أو يتأخر) مصدر مؤول مبتدأ ، وقوله : (لمن شاء منكم) خبره مقدم عليه ، والمعنى أنكم معشر البشر — بعد أن أعذر الوحى إليكم ، وألقى من كلمات النصح والإنذار ما ألقى عليكم — لم يبق إلا أن تستعملوا عقولكم ، وتستفيدوا من المشيئة والاختيار الممنوحين لكم ؛ فتختاروا لأنفسكم من الخير والطاعة ما هو المأمول فيكم ، والأليق بكم ؛ فإن كلا من التقدم إلى الخير ، والتأخر عن الشر — أمر ميسر لكم ، ممهد أمامكم ، منوط بحسن اختياركم ، فإن لم تتقدموا إلى الخير كنتم الجانين على أنفسكم .

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾

وحمل الآية على هـذا المعنى له تعلق كبير بآية (يضل الله من يشاء ، ويهدى من يشاء) الواقعة قبلها قريبا منها ، ومفسرة لها بالمعنى الذى قلناه فى تفسيرها : من أن للإنسان إرادة واختيارا وهما مناط التكليف والمؤاخذة ، وأن ما يوهم الجبر والإكراه محمول على أنه تعالى أشرع أمام البشر طريق الخير والشر ، وأن سلوك المرء فى أحدهما مطابق لعلم الله الأزلى ، ومستمد من مشيئته القديمة .

ثم إن المعنيين اللذين قلناهما فى هذه الآية يظهر أنهما يصلحان فى آية سورة "التكوير" : (إن هو الا ذكر للعالمين . لمن شاءَ منكم أن يستقيم) لكنى لم أرهم تعرضوا لغير المعنى الأول ، وهو أن يكون (لمن شاء) بدلا من (للعالمين) لا مستأنفا كما قالوا باحتماله هنا .

مر أنّ آيات الوحى أنذرت الإنسان، فما عليه إذن إلا أن يفعل ما يعنّ له ، من التقدّم إلى الخير أو التأخر عنه إلى الشر ، وليكن على ثقة أنه إذا اختار الشر ومقارفة الإثم فليس بمعجز الله ، ولا بمفلت من أن يحاسبه على عمله ، ويأخذه بذنبه ، إذ ﴿كل نفس﴾ من نفوس البشر ارتكبت ذنبا أو اقترفت إثما ، هى ﴿بما كسبت﴾ أى ارتكبت واقترفت من ذلك الذنب والإثم ﴿رهينة﴾ أى مرهونة ومحبوسة يوم القيامة فى مقابل ذنبها حتى تعاقب عليه ، وأكثر المفسرين على أن [رهينة] ليست مؤنث رهين بمعنى مرهون ، لأنّ رهين هذا يستوى فيه المذكر والمؤنث ، فلا حاجة إلى أن يقال فى تأنيثه [رهينة] ، وإنما هى مصدر . يقال : رهنه رهنا ورهينة كما يقال شتمه شتما وشتيمة ، والمصدر يستوى فيه المذكر والمؤنث والمفرد والجمع ، ثم أطلق المصدر على الشىء المرهون وثيقة لشىء آخر ، فيقال : فلان رهن أو رهينة أو مرتهن بجريرته كما يقال هو مُسْلَم بها ومُبْسَل بها ، وكله بمعنى أنه مأخوذ بها ولا فكاك له منها ، فنفوس البشر يوم القيامة مصبورة على معاقبتها والاقتصاص منها ، فتدخل دار العذاب غير مفكوكة ﴿إلا أصحاب اليمين﴾ أى إلا فريق السعداء . وقد مر أنّ أهل اليمين والميمنة عنوان يطلقه الشرع على السعداء كما يطلق أصحاب المشأمة والشمال على الأشقياء ، فالسعداء هؤلاء فكوا رقابهم وخلصوها كما يخلص الراهن رهنه بأداء ما عليه من الحق ، وأصبحوا فى منجاة من العذاب على ذنوبهم ؛ إما لأنهم لم يقترفوا ذنوبا يستحقون معها العذاب ؛ بأن كانوا من الصدّيقين أو الأبرار ، وإما لأنهم اقترفوا من الذنوب مالم يبلغ بهم حدّ التعذيب عليها ؛ بأن تابوا منها توبة نصوحا فغفرها الله لهم ، أو عملوا من الصالحات

فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾

ما أربى ثوابه على تلك الذنوب : كالاستشهاد فى سبيل الله ونصرة الحق، فكان ذلك كفارة لها .

هؤلاء ينعمون ﴿فى جنات﴾ مواطن كرامة وسعادة لا نظير لها ، ولذا نكرها ، ويكون من شأنهم فيها أنهم ﴿يتساءلون﴾ يسأل بعضهم بعضا ﴿عن المجرمين﴾ المذنبين الذين يعهدونهم فى دار الدنيا قد كذبوا الوحى وأعرضوا عن الحق وارتكبوا من الآثام والمناكر ما استحقوا به العذاب .

وتساؤل أصحاب اليمين عن المجرمين قد لا يكون عن جهل بأمر مصيرهم ، وسوء منقلبهم ، وإنما هو زيادة فى تبكيت أولئك المجرمين وتوبيخهم ، وإدخال الألم والحسرة على نفوسهم ، مذ يتذكرون أن أسباب النجاة كانت مُوَفَّرة بين أيديهم فى دار الدنيا فأهملوها ، وسبل الأعمال الصالحة كانت ممهدة تحت مواقع أبصارهم فتنكبوها ، على أنّ فى تساؤل السعداء هذا السؤال ما يزيدهم التذاذا بنعيمهم ، ومسرة بما وفقوا إليه من العمل الصالح فى دار الدنيا فسعدوا ونجوا من العذاب .

فإذا تساءلوا عن حال المجرمين كما وصفنا أجابهم بعض المسئولين من رفاقهم السعداء بما كان سبق لهم من الحوار مع هؤلاء المجرمين المعذبين فيقولون لهم : كنا أشرفنا على المجرمين يوما وسألناهم عن حالهم : قائلين لهم ﴿ما سلككم فى سقر﴾ وما الذنب الذى أدخلكموها ؟ فالخطاب فى (ما سلككم)، إنما هو مستند إلى سابق كلام مقدّر قبله ، وقد حذف اختصارا واعتمادا على فهم المخاطب ، ومثله كثير فى القرآن ، وهو من أعجب أساليب إعجازه، ولولا هذا التقدير لكان الظاهر الغيبة : على معنى أن السعداء يسأل بعضهم بعضا ما سلكهم ، أى سلك المجرمين فى سقر ولهذا الإيجاز نظائر فى أقوال العرب وأشعارهم ، من ذلك قول حاتم الطائى :

لكل امرئ نفسان: نفس كريمة ونفس فيعصى نفسه ويطيعها

وأصل الشعر مع المحذوف منه هكذا [لكل امرئ نفسان : نفس كريمة ونفس لئيمة : فهو تارة يعصى نفسه الكريمة ويطيعها ، وطورا يعصى نفسه اللئيمة ويطيعها] .

فالمذكور فى الكلام تسع كلمات، والمحذوف منه تسع أيضا بقدر ما ذكر. ومنه أيضا قول الآخر :

شهور ينقضين وما شعرنا بأنصاف لهنّ ولا سرار
فأما ليلهنّ فخير ليل وأطيب ما يكون من النهار

أى وأما نهارهنّ فأطيب الخ .

قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾

ويمكن إبقاء الخطاب فى (ماسلككم) على ظاهره . على معنى أن السعداء (يتساءلون عن المجرمين) المعذبين فيما بينهم ثم يعرجون على مقرهم من دار العذاب فيسألونهم عن حالتهم مواجهة قائلين لهم : (ما سلككم فى سقر ؟) وفى هذا التوجيه حُذف أيضا بضع كلمات كما حُذف فى التوجيه الأول .

﴿ قالوا ﴾ الخ هذا جواب المجرمين لأصحاب اليمين الذين سألوهم عن الذنب الذى أدخلهم سقر . والصلاة : فى اللغة الدعاء والدين والاستغفار ، ثم غلبت فى العبادة المعروفة ذات الركوع والسجود ؛ فقول المجرمين إنهم لم يكونوا من المصلين — الأشبه أن يكون معناه لم نكن من أهل الدعاء والدين الذى يرضى الله تعالى وهو دين الإسلام ، وقد مر أن الدعاء قلما يذكر فى القرآن إلا مرادا به العبادة ، والله تعالى إنما يحكى فى هذه الآيات عن أبى جهل وأحزابه من سادات قريش السابحين فى الشرك والضلالة وعبادة غير الله ؛ فهم — بأن تُطْلَبَ منهم فى أول الأمر الصلاةُ بمعنى الدين والدعاء والعبادة — أجدر من أن تطلب منهم الصلاة المعروفة ذات الركوع والسجود ، على أن هذه الصلاة لم تكن فرضت يومئذ ، وإنما فرضت قبل هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بسنة ، وبعد بعثته باثنتى عشرة سنة ، وسورتنا هذه (يأيها المدثر) مكية بل من أول ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم كما مر ؛ فالمجرمون المخاطبون بها لم يكونوا مكلفين حين نزولها إلا الصلاة بمعنى الدين والعبادة . ويشد ذلك قول هؤلاء المجرمين عن أنفسهم إنهم كانوا يكذبون بيوم الدين ، والوحى فى عشر السنوات الأولى التى قضاها صلى الله عليه وسلم فى مكة بين أظهر المشركين إنما كان غرضه أمرين : (١) إثبات التوحيد والعبادة لله دون المعبودات الأخرى (٢) إثبات البعث والحساب . وقول المجرمين " ما كانوا من المصلين وإنهم كانوا من المكذبين بيوم الدين " يلتحم مع الغرضين المذكورين إذا فسرنا الصلاة بالدين والعبادة .

وسمى يوم القيامة "يوم الدين" لأن فيه يقع الجزاء والحساب والقضاء والقهر ، وكل هذا من معانى كلمة الدين . ويسمى أيضا يوم الدينونة أى الحشر والقضاء بين الناس ، والديان القهار والمجازى والقاضى . قالوا : "وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه ديان هذه الأمة بعد نبيها" ، أى تفرد بمزية القضاء والحذق فى فصل الخصومات بعده عليه الصلاة والسلام

وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾

ذكر المجرمون من خصالهم البشعة التى استحقوا بها دخول سقر — أربعة خصال : خصلتين تتعلقان بالعقائد وهى الشرك وإنكار البعث ، وخصلتين تتعلقان بالأخلاق ، وهى البخل والخوض فى الباطل .

وكان القوم فى جاهليتهم يبذرون أموالهم فى السفه والقمار ومنافسة بعضهم بعضا فيما لا يفيد ولا ينفع ولا يظهر له أثر فى مصالحهم الاجتماعية ، ولا سيما كفاية المساكين وسدّ جوعتهم وتخفيف ألم البؤس عنهم ؛ فهؤلاء المجرمون ما كانوا يطعمون المساكين ، وما كانوا يتفقون فيما بينهم على سدّ هـذا الخلل ، وملافاة ذلك الشر ، أعنى البؤس والفقر الذى إذا فشـا فى قوم أفسد أخلاقهم ، وقطع روابطهم ، وعرضهم للشر من الأمراض الجسمية والاجتماعيـة والسياسية . ومعضلة أوربا اليوم إنما هى الفوضوية ؛ ولم يولدها فيهم إلا استئثار حامّتهم وذوى الدهاء فيهم بالأموال الطائلة ، واحتجانها عن عامتهم وسواد أمتهم . وإن معظم اهتمام عقلائهم فى هذه الأيام فى تسوية هذه المشكلة ، وحل تلك المعضلة .

وإنمـا اقتصر المجرمون من أمر العناية بالمساكين على ذكر عدم إطعـامهم لأن القوت أهم ما يحتاجون إليه فى قيـام حياتهم ، وإلا فإن الإسلام يأمر بمواساتهم ، والرفق بهم ، وإيصال أى ضرب من ضروب الخير إليهم ، وقد مر فى سورة الحـاقة شىء من هذا عند قوله تعالى : (ولا يحض على طعام المسكين) .

أما الخصلة الأخلاقيـة الثـانية التى اعترف المجرمون بأنهم كانوا اقترفوها فى دنياهم فهى الخوض فى الباطل ، والاجتماع على الغيبة والنميمة ، والإفساد فى الأرض ، وتدبير المكايد لأهل الحق ، وتأريث نار الفتن بينهم : ممـا يؤدى إلى تسلط الأشرار ، وخراب الديار ، وسقوط جماعات البشر فى مهاوى الشقاء والبوار ، فهم يعترفون بأنهم ما كانوا يجتمعون فى أنديتهم للمذاكرة فيما يفيد وينفع ويصلح ، وإنمـا كانوا يجتمعون للخوض فيما يضر ويعر ويفسد .

وأصل [الخوض] الذهاب فى المـاء ، ثم نقل إلى الذهاب فى الكلام والأخذ بأطراف الحديث ، ثم غلب على الإكثار من باطل الكلام وما لا يفيد من الحديث . وقلما ذكر الخوض فى القرآن إلا مرادا به هذا المعنى وإن لم يذكر مفعوله . ومثـله فى ذلك "أسمعه" فإنهم يريدون

وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾

أنه أسمعه ما يكره من القول وإن لم يذكروا ذلك ، و " ذَكَرَه " فانهم يريدون به أحيانا أنه عابه وتكلم فى حقه بسوء وإن لم يذكروا ذلك أيضا . ومنه قوله تعالى : (سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم) وكانوا سمعوه يعيب أصنامهم .

قال المجرمون إننا ما زلنا فى دنيانا نشرك بالله ، ونكذب بالمعاد ؛ ونرتكب من مساوى الأخلاق أنكرها وأبشعها ، كالقسوة على المساكين ؛ والانهماك فى الأباطيل ﴿حتى أتانا اليقين﴾ العذاب الحق الذى نقاسيه اليوم ؛ أو المراد باليقين الموت الذى توقن به كل نفس ؛ وفيه إيماء إلى أنهم كانوا فى غفلة عنه ؛ وأنهم لانهماكهم فى الباطل كانوا على شك منه .

ثم لما أنهى القوم حديثهم عقبه الوحى بأن هؤلاء المجرمين المرتكبين ما ذكر من منكر الأعمال لا منقذ ينقذهم من صب سوط العذاب عليهم ؛ ولا وسيلة من وسائل النجاة تحول بينهم و بين إنفاذ العدل الإلهى فيهم ؛ فقال : ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ و [الشفاعة] فى المجرمين لدى الحكام : إما أن يكون الحامل عليها الكفكفة من ظلم أولئك الحكام ؛ وتخطيهم حدود العدل فى حكمهم ، وإما أن يكون الحكم أصاب مقطعه من العدل غير أن للمحكوم عليه فى رأى الشفعاء مزية تقتضى الرفق به ؛ والعفو عنه . والأول لا يتصور فى جانب الألوهية؛ ولا يجوز أن يقال إنه تعالى جار أو ظلم فى الحكم على المجرمين ؛ وأن هؤلاء الشفعاء يتوسطون فى إزالة ذلك الظلم عنهم . أما الثانى وهو عفو الحاكم عن المجرم رحمة به وشفقة عليه فان هذا ممكن الوقوع فى جانب الألوهية بعد أن يأذن به سبحانه وتعالى (من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه) ولكن هذا الفريق من المجرمين الذين وصفوا بما ذكره الوحى لا يقبل الله شفاعة الشافعين فيهم ؛ فليعلم إذن من كان على شاكلتهم من الناس هذا الأمر ؛ ولا يعتمدوا على الشفاعة ، وإنما عليهم أن يعتمدوا على التوبة والإنابة إلى الله ، فهى وحدها التى تجيهم من العذاب .

وهذا لايمنعنا أن نقول إنه ما أخر المسلمين وأفسد حالهم ؛ وأخر عمرانهم ؛ وأوهن عزائمهم عن العمل بأوامر القرآن والخوف من زواجره ؛وجعلهم يتسامحون فيما تسامحوا به مما أصبح أمره متعالمًا معروفا ،وعلى أسلات الألسنة والأقلام مذكورا وموصوفا — شيء مثل سوء فهمهم الشفاعات

وتخدر أعصابهم بالمَدَدِ والبركات ؛ ونفوذ سلطة الكرامات ؛ بل التلعب أحيانا فى فهم الآيات البينات ؛ فقول قائلهم : "إذا قال لى ربى يوم القيامة : ما غرك بربك الكريم ؟ أقول له غرنى كرمك يارب" — ذهاب فى فهم كلمات اللغة غير مذاهبها ؛ وحمل للكرم على معناه فى لغتهم لا فى لغة العرب ؛ وإلا فان معنى الكرم فى اللغة أن يبلغ المرء الكمال فى الأخلاق والسجايا ؛ وكرم الله كماله فى صفاته القديمة التى منها العدل والحق وصدق الوعد واطراد السنن والنواميس الأزلية اطرادا عليه تقوم السموات والأرض ؛ ويتحقق ما فى الوحى الإلهى من واجب وفرض بحيث يظهر أثر إرشاده وتعليمه فى نفوس العاملين به ؛ والسالكين فى طريقه ؛ أما أن المراد بكرم الله الكرم الذى قد يكون فى بعض الأمراء والسادات ، تُرْتكب إليهم كلُّ جناية مخربة ؛ وتمارس بين ظهرانيهم كل رذيلة بشعة مفسدة ؛ ثم يعفو ذلك السيد عن صاحبها فلا يهاج ؛ ويحلم عليه فلا يمس بعقوبة ولا إزعاج — فان هذا غير مراد بالآية ؛ وليس كرمه سبحانه وتعالى هذا النوع من الكرم . نعم إنه تعالى مطلق التصرف فى خلقه يحكم ما يشاء ويفعل مايريد ، ولكنه سبحانه وتعالى وصف ذاته القديمة أيضا بأنه حكيم قيوم صادق الوعد والوعيد ؛ لا تتبدل سننه ولا تتغير نواميسه . ولا نقول هذا تعطيلا لمنطوق النصوص الأخرى الدالة على شمول عفوه سبحانه عن المذنبين ؛ وقبوله شفاعة بعض الشافعين ؛ وإنما نرى أن نقف إزاء هذه النصوص وقفة تحفظ ؛ فلا نؤمن إلا بما صح وثبت منها ؛ ثم نقف إزاء هذا الصحيح الثابت وقفتنا أمام المتشابه تقريبا ؛ فنقول : إنه سبحانه وتعالى يقبل شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره من المقربين قبولا يدل على علو مقامهم ؛ وعظيم منزلتهم عند ربهم ؛ ويلتئم مع حكمته تعالى وعدله ؛ واطراد سنته وصدقه فى وحيه ؛ من حيث يؤدى اتباع هذا الوحى الصادق إلى قيام أمر العالم ؛ وانتظام شمل الأمم ؛ واستقرار الخير والعمل الصالح فيهم ؛ واستتباب العدل والحق بينهم .

وأما إذا صدقنا كل ما يقال ويروى بشأن الشفاعة فى المجرمين والآثمين ، والتوسط فى العفو والصفح عن المخربين المفسدين — فإن الوحى السماوى الصادق يضعف إذ ذاك تأثيره فى نفوس المخاطبين ؛ كما وقع وشاهدنا أثره عيانا فى المسلمين . فانظر إليهم اليوم وقد أتاهم اليقين ، هل قُبِلَت منهم معذرة أو نفعتهم شفاعة الشافعين ؟ ؟

فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾
بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾

قوله ﴿فما لهم﴾ الخ تفريع على قوله قبله (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) أى إذا كانت السنة الإلهية فى المجرمين المكذبين ما ذكر من ارتهانهم بما كسبوا من أعمالهم ، وعدم قبول شفاعة الشافعين فيهم — فما بالهم يُعرضون عن التذكرة يعنى عن القرآن وآياته التى أنزلت لوعظهم وتذكيرهم ، فلا يتدبرونها ، ولا يهتدون بهديها ؟

ثم وصف إعراضهم عن القرآن وتباعدهم عن استماعه،ونفورهم ممن يدعوهم إلى الانتفاع به فقال : هم من هذه الجهة ﴿كأنهم حمر﴾ جمع حمار ، والمراد بها حمر الوحش ؛ فإن العرب كثيرا ما يضربونها مثلا فى النفار والشرود ، ولا سيما إذا نجم لها شاخص ، أو أراد أن يقنصها قانص وقوله ﴿مستنفرة﴾ بكسر الفاء بمعنى أنها طلبت النفار من نفسها ، وتكلفته تكلفا ؛ فيكون ذلك أشد فى عدوها ، وأبعد فى نفارها . ومن قرأها بفتح الفاء أراد أنها قد نَفَّرَهَا منفر ، وحملها على العدو حامل . ثم ذكر السبب الذى دعاها إلى النفار فقال : ﴿فرت من قسورة﴾ والمشهور المتبادر من معنى [القسورة] أنه الأسد ، مشتق من القسر ، وهو القهر والغلبة . يقال : ليوث قساور . ويحتمل أن يكون المراد بالقسورة جماعة الرماة الذين يتتبعون حمر الوحش والوعول لصيدها وقنصها . والمعنى الأول أشهر كما قلنا : سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن قوله تعالى ﴿فرت من قسورة﴾ فقال : هو بالعربية "الأسد"، و بالفارسية "شير" ، و بالنبطية "اريا" ، و بالحبشية " قسورة " ، فالقسورة على قوله معربة وليست بعربية الأصل .

ثم وصف الوحى من حال أولئك المكذبين ما هو أشد غرابة من حالة إعراضهم عن القرآن فقال : ﴿بل يريد كل امرئ منهم﴾ الخ كأنه يقول : دع عنك ذكر إعراضهم وغباوتهم ونفارهم نفار العجماوات مما فيه خيرهم وسعادتهم وهداهم ، واستمع ما هو أعجب وأغرب : ذلك أنهم (يريد كل امرئ منهم) أى من أولئك المعرضين ﴿أن يؤتى صحفا منشرة﴾ مكان القرآن ؛ فيشبه حالهم أن يكونوا يعلمون أن القرآن من عند الله لكنهم يعرضون عنه ، و ينفرون من سماعه ، إذ لم يؤت كل واحد منهم صحيفة خاصة به ، تنشر بين يديه ؛ ليؤمن بالنبى صلى الله عليه وسلم . ولا ريب أن هذا الاقتراح والاشتراط فى تصديقهم بالقرآن و بالنبى عليه السلام أغرب من

كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾

إعراضهم عن سماع القرآن ، ومن ثم عطف جملة (يريد كل امرئ منهم) على ما قبلها ببل التى تفيد الإضراب والانتقال إلى ما هو أهم وأجدر بالذكر .

و[الصحف] : القراطيس التى تكتب وتتداولها أيدى الناس يقرءونها وينظرون ما فيها . و[المنشرة] : المبسوطة المفتوحة تحت أبصارهم : يقال نَشَّر الثوب ونحوه إذا بسطه ، ويقولون "صحف منشرةٌ ، ومُلاء منشر" أى منشور ومبسوط . والمُلاء جمع ملاءة : الثوب المعروف ، ويقول لها العامة : ملاية .

واختلفوا فى أولئك المعرضين عن التذكرة كيف كانوا يوردون اقتراحهم بشأن الصحف المنشرة ؛ فروى أنهم قالوا له صلى الله عليه وسلم : "إنا لن نتبعك حتى تأتى كل واحد منا بكتاب يكتب فى السماء وينزل به الملك ساعة كتب غضا رطبا منشورا لم يطو بعد ، عنوانه : من رب العالمين إلى فلان بن فلان . اتبع محمد بن عبد الله" ويؤيد هذه الرواية آية (ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) وقيل إنهم قالوا له : "إن سرك أن نتبعك فليصبح كل واحد منا فيرى عند رأسه صحيفة منشورة فيها تأمينه من النار" يعنى أنهم يريدون أن يؤتوا براءة من عذاب جهنم قبل أن يعملوا العمل المنجى منها . وهذا دأب قصار النظر الذين يطلبون النهاية فى البداية ، ويريدون بلوغ الغاية قبل تكلف المسير إليها . ولما كان فعلهم هذا دالا على مكابرتهم وفساد رأيهم زجرهم عنه بكَلَّا فقال تعالى : (كلا بل لا يخافون الآخرة) الخ .

(كلا) أى ليرتدعوا عن رأيهم الفاسد فى أمثال هذه الاقتراحات ولا يحسبوا أن دعواهم أن يتبعوا رسولنا ، ويصدقوا وحينا إن هم أوتوا الصحف المنشرة — تروج علينا ؛ فالأمر ليس كذلك ، (بل) هم قوم (لا يخافون الآخرة) ، ولا يصدّقون بالبعث والحساب ، ولا يؤمنون بدارى النعيم والعذاب . وهذا هو الذى أفسدهم ، وجعلهم يعرضون عن التذكرة والانتفاع بها . ولو أنهم خافوا الآخرة لصدقوا تلك التذكرة ، وأغناهم ذلك عن الصحف المنشرة . فطلب الصحف المنشرة على الوجه الذى سبق إنما كان خداعا وتمويها وإضاعة وقت ، ولشد ما نهاهم القرآن عن اقتراح آيات وعجائب أمثال ذلك ، ووبخهم على تكليفه صلى الله عليه وسلم الإتيان بها . وقال لهم : إن القرآن وما فيه من الهدى والحكمة والإرشاد هو الآية الساطعة ، والحجة القاطعة ،

كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾

على صدق محمد ، وأنه مرسل من عند الله ، فلا ينبغى لعاقل أن يطلب من الطبيب شهادة على صحة دعواه وحذقه فى صناعة الطب من مثل إنزال صحيفة من السماء ، أو تفجير ينبوع من الأرض بعد أن يكون الطبيب أقام دليلا على دعواه ، وثبتاً على مهارته — شفاءه الأمراض ، وإبراء ذوى العلل والعاهات .

وهكذا كان شأنه صلى الله عليه وسلم فى هداية الناس بالقرآن وما أودعه من الحكم والعبر ، وبما فطرت عليه ذاته الشريفة من الأخلاق الفاضلة ، والسجايا العالية . كل ذلك كان أكبر آية على صدق دعوته ، وأوضح معجزة على استقامة محجته ؛ فما بال هؤلاء القوم يقترحون عليه الإتيان بالغرائب والعجائب ؟ أولا يعلمون أن دورها ذهب مع أدوار الأمم القديمة وقت أن كان السحر والشعوذة والطلسمات والكهانة واستخدام الجان وتسخير الشيطان وإخراجه من بدن الإنسان — ركنا من أركان دياناتهم ، وشعبة من شعب شرائعهم وتعاليمهم ؟ أما وقد بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وأُطلقت العقول من عُقُل الأوهام ، واستعد البشر بمجموعهم للدخول فى طور كريم من التشريع والهداية والتعليم — فإن الوحى لم يعد يجيبهم إلى كل ما كانوا يقترحون ويسألون ، بل كانوا إذا اقترحوا شيئا أحالهم على القرآن وما فيه من الهداية العملية المجربة فى استصلاح نوع الإنسان ، على أن الوحى لو كان يجيبهم إلى أى اقتراح اقترحوه — وهم من العناد والمكابرة على ما كانوا عليه — لاقترحوا أمرا آخر وهكذا . ومن أجل ذلك رد الوحى عليهم اقتراحهم الصحف المنشَّرة ، فقال فى أوائل سورة الأنعام : (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) .

زجرهم أولا بقوله ﴿ كلا ﴾ عن اقتراح أمثال الصحف المنشَّرة وأشار فى قوله ﴿ بل لا يخافون الآخرة ﴾ إلى أنه لم تحملهم على اقتراح الصحف رغبتهم فى التذكرة ، بل كان الصارف الحقيقى لهم عنها عدم خوفهم من الآخرة . ثم عاد فزجرهم عن كل أعمالهم ومجموع مزاعمهم فقال ﴿ كلا إنه تذكرة ﴾ أى فليرتدعوا عما هم عليه من الاستخفاف بأمر الآخرة ، وعدم الخوف منها ؛ وإعراضهم عن التذكرة ، والتصديق بها ؛ وادعاء أنهم إن أجيبوا إلى مقترحهم ، وأُعطوا الصحفَ المنشَّرة آمنوا . ليرتدعوا عن ذلك جميعه . ثم بين سبب وجوب ارتداعهم مشيرا إلى أن شأن محمد والقرآن الذى أتاهم به فتلتل نفوسهم ، وأرمض قلوبهم — فوق أوهامهم ، وفوق ما يتصوّرون ؛ فقال :

فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ

﴿إنه تذكرة﴾ أى إن ذلك الذى أتاهم به محمد صلى الله عليه وسلم ، وحضهم على تصديقه ، وترك الاعراض عنه — ليس سوى تذكرة لهم : تذكرهم بما يجب عليهم من الإيمان بالله ، وترك عبادة الأصنام ، وتنذرهم إن كذبوا واستكبروا عذاب يوم عظيم . فالضمير فى قوله (إنه) يرجع إلى ما أتى به النبى صلى الله عليه وسلم من الوحى والقرآن المفهوم بمعونة المقام . وكان سبق فعبر عنه بالتذكرة مذ قال : (فما لهم عن التذكرة معرضين) أى عن القرآن والوحى . وقد سماه فى هذه الآية تذكرة لما فيه من التذكير والإنذار والتحذير .

ثم عاد أخيرا بعد ما زجر المعرضين عن التذكرة زجرا عاما فأكد لهم أمر القرآن والوحى الذى أعرضوا عنه ملقبا له مرة ثانية بأنه تذكرة وإرشاد للبشر ، ليس له وصف سوى ذلك ، فما هو سحر يؤثر ، ولا قول البشر كما زعموا ، فلماذا يعرضون عنه ، ويتشاءمون به ، ويرتابون فى نصحه ، ولم يطلب محمد صلى الله عليه وسلم منهم عليه أجرا ، ولا كلفهم عطاء أو منصبا يكون لأولاده من بعده ذخرا ؟ فهو محض خير لهم ، وكل نفعه عائد عليهم .

وفى ختمه السورة بقوله إن القرآن تذكرة ربط لنهايتها ببدايتها ، وتذكير بموضوعها الذى سبق فى فاتحتها ، وهو الإنذار بالقرآن مذ قال : (يأيها المدثر قم فأنذر) أى خوف قومك بالقرآن . فهو هنا يقول : إن ذلك الذى أمرتك بالانذار به فى أول السورة ليس سوى تذكرة بالغة للقوم ، وإرشاد وموعظة لهم . وهى لعمرى كافية فى إصلاح أمرهم إذا تدبروها واتعظوا بها ، ولكن هل يرجى منهم الاتعاظ والادكار ؟ أجاب عن ذلك بقوله : ﴿فمن شاء ذكره﴾ أى فمن شاء وأحب منكم أيها المعرضون عن القرآن ، المتغافلون عن هديه — ذَكَرَه فلم يَنْسَه ووَضَعَه نُصْبَ عينيه فلم يُعْرِض عنه ، فان القرآن جدير بالإقبال عليه ، خليق بالاستضاءة بنوره ، وكل واحد منكم أيها المعرضون متمكن بتمكين الله أن يختار طريق نجاته وما به صلاح أمره ، فليختر إذن ولا يقصر ، لكنهم غلبت عليهم الشقوة فلا يختارون إلا الوبال ، وتغلفت قلوبهم بالغفلة فلا يذكرون إلا الضلال . أما القرآن وما فيه من الخير والهدى فلم يعد فى مكنتهم اختياره وادكاره وتوجيه نفوسهم إليه (إلا أن يشاء الله) ذلك منهم بقهرهم عليه ، لكنه تعالى لم تجر عادته فى شرائعه السماوية ووحيه المنزل على أنبيائه أن يقسر الناس عليه قسرا ، أو يسوقهم إلى التصديق به جبرا . وإنما هو تعالى يُشْرِع لهم السبيلين : سبيلى الخير والشر ، ويرفع لهم النجدين :

تجدى الهدى والضلال ، وينصب لهم المنارين : منارى الحق والباطل . وعليهم هم أن يختاروا لأنفسهم ؛ فمن شاء منهم ذكر ، واتعظ واعتبر ، ومن شاء غفل ونسى ، وكان هو الجانى المسىء وهذا هو تفسير قوله تعالى ﴿ وما يذكرون إلا أن يشاء الله ﴾ .

وبهذا التفسير إن شاءالله يلتحم معنى الآية أشد الالتحام مع قوله قبله (فمن شاء ذكره) الدال على تخيير المكذبين ، وتنبيههم إلى ما أودعه الله نفوسهم من المكنة والاستطاعة .

يقول تعالى : ﴿ فمن شاء ﴾ من أولئك المعرضين أن يذكر القرآن ﴿ ذكره ﴾ ، وبقى منه على بال ، فينتفع به . ﴿ و ﴾ لكنهم لفرط عنادهم ، ولسوء ملكتهم ﴿ ما يذكرون ﴾ أى ما يشاءون أن يذكروه ذكرا انتفاع واستفادة ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ ذلك بقهرهم عليه . وهـذا لا يكون منه تعالى ؛ لكونه مخالفا لسنته الإلهية مع الأمم . وإنما سنته أن يبين لهم الأمرين ، وينصب أمام أعينهم الطريقين ؛ فاذا سلكوا طريق الحق نجوا ، وإذا سلكوا طريق الضلال خسروا وهلكوا . كما قال تعالى فى آية أخرى (فمن شاء فليؤمن ومن شاءفليكفر) .

أما قهره تعالى الأمم، وإجباره لها على الإيمان الذى قلنا إنه لم تجر عادته به — فهو كأن يُبرز للعيان وسائل الهلاك وأدوات التعذيب ، ثم يقال للمكذبين : إن لم تؤمنوا فأنتم هالكون بما ترون من هذا العذاب الواقع بكم . والتكليف على هذه الصورة لم تأت به الشرائـع السماوية ، بل قال العلماء : إن معجزات الأنبياء والآيات التى تظهر على أيديهم لا تتعدى دائرة التحذير والتخويف كما قال تعالى : (وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) . قالوا : ولا يكون من المعجزات أن يقول النبى لقومه : "انظروا إلى السماء، فيرون فيها مكتوبا بأحرف من نور بالقطع الكبير "فلان نبى ، ودينـه هو الحق ، فاتبعوه" ثم يبقى ذلك باديا للعيان حقبة من الزمان . قالوا : هـذا لا يمكن أن يقع ؛ لأن الدعوة إلى الإيمان بهذه الصورة تصبح من قبيـل الإلجاء والإجبار ، ودعوة الأمم التى جرت بها عادة الله تعتمـد على التفويض والاختيار ؛ ليتميز بذلك الأبرار من الفجار . ولو كتب فى السماء بأحرف من نور كما وصفنا لم يعد فى وسع أحد من الناس مهما كان عنيدا ، أو سمجا بليدا — إلا الإذعان والتصديق .

فقوله تعالى هنا : (وما يذكرون إلا أن يشاء الله) بعد قوله : (فمن شاء ذكره) الدال على مطلق التفويض والتخيير — لا ينبغى تفسيره بغير ما ذكرنا . ومثله فى سورة التكوير آية (وما تشاءُون إلا أن يشاء الله) بعد قوله (إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم) .

هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

فهو تعالى يقول : إن الاستقامة يا معشر البشر داخلة تحت مشيئتكم فاستقيموا إذن . ثم قال موبخا لهم ، ناعيا عليهم سوء ملكتهم ، وفرط عنادهم : (و) لكن أنتم (ما تشاءون) الاستقامة واتباع الحق (إلا أن يشاء الله) ذلك منكم بالقهر والإجبار والإلجاء ، وهذا لم تجربه عادته تعالى فى الأمم ، فالويل لكم إن لم تنظروا لأنفسكم .

وإن لم نقل فى تفسير هاتين الآيتين ما قلنا وقعنا من ظاهر التناقض فيهما فى جدال لا ينتهى مع المبطلين المشككين ، من حيث يفتح لهم بابا إلى تعطيل الشرائع ، وتهوين أمر الدين .

على أن ماقلناه فى معنى الآيتين لا يخرج عما عرف فى تخاطب أهل اللغة : تقول لابنك الذى تريد أن تسلك فى تربيته طريق الرفق واللين " افعل يابنى ما آمرك به ، ولا عذر لك فى المخالفة فإنك بحمد الله مطيق لما كلفتك ، قادر عليه " ، فإذا خالفك ولم يعمل بمشورتك عنادا أو لجاجا تهدده فتقول : " أنا أعلم أنك لا تشاء أن تفعل ما أقول لك إلا أن أشاء أنا أن تفعله " ، ولست تريد فى قولك هذا أن تسلب ابنك الاختيار والإرادة بالمرة ، وإنما كل ما تريده تهديده من طرف خفى بأن فى طاقتك أن تكرهه على ما أردت منه بواسطة الضرب الموجع ، واللكم المتتابع مثلا : غير أنك تربأ بنفسك ، وبابنك المحبوب أن تقفا معا هذا الموقف ، متربصا به الرجوع عن غيه بزاجر من نفسه .

ومن عادة القرآن أن يأتى عقب التهديد بكلمات الترفيق والترغيب ، وهذا ما كان فى الآية التى نفسرها ، فإنها عقبت بقوله تعالى : ﴿هو﴾ أى الله ﴿أهل التقوى﴾ أى أهل لأن يُتقى ويُحَذَّر عقابه ، فلماذا لا تتقونه أيها القوم ؟ ﴿وأهل المغفرة﴾ أى وأهل لأن يَغفر لمن اتقاه منكم وأصلح عمله ، فلماذا لا تصلحون أعمالكم ، وتتركون إعراضكم ، وتتوبون إلى ربكم ؟

هذا ما وجدناه الأتقن والأحكم فى تفسير آيات الإضلال . ونسأل الله ألا يجعل علينا تبعة فيما قلنا أو نقلنا : ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا .